


ما دخل شيء في دائرة الضوء إلا اكتسب لمعاناً وإشراقاً وتلألؤاً، وما انطوى شيء تحت ظلال الإسلام إلا اكتسى من جلاله معانيَ أسمى وآفاقاً أوسع وأغواراً أعمق.

لقد خلع الإسلام على الفن نظرة شمولية واسعة، فهي النظرة الصحيحة للحياة التي تساير ناموس الكون في جماله وتوازنه وتناسقه، وتبرز حكمة الخالق في قضائه وقدره، وتنسجم مع طبيعة الإنسان في كيانه الفكري والروحي والجسدي، وتتلاءم مع قيم الحق والخير والجمال.

فيعرض الفن الإسلامي هذه الحقائق بحيث تشتاق النفس في النهاية إلى الجمال والفضيلة وتنفر من القبح والرذيلة وتخرج من مدرسة الفن نفساً فاضلة متوافقة مع ناموس الكون، سائرة في ركاب الفضيلة، دائرة في فلك الجمال، ناسكة في رحاب الطبيعة.

لقد تحرَّر الفن في ظلال الإسلام من الأغلال الموصدة التي قيّده بها الفن الغربي بمدارسه الفنية ومذاهبه الفلسفية فجاء فنَّاً ضيق النظرة صغير المساحة. فن عَزْلٍ وتخصُّص وإفراد. لا فن تجميعٍ وتنسيق وكشفٍ عن القوانين العامة الغيبية التي تنظم الكون وتبرز حكمة الخالق وحسن تدبيره. والتي تختفي وراء القوانين الجزئية الصغيرة

التي تبرزها مذاهب الفن الغربية حسب تصورها ونظرتها للحياة

فيغدو الفن الغربي أشبه بالرسم الكاريكاتيري الذي يبرز جزءاً معيناً من وجه الإنسان فتختل النسب وتتشوّه الصورة.

فالفن الإسلامي إذاً يصدر عن التصوّر الإسلامي الشامل للكون والوجود الكبير الممتد منذ الخليقة إلى قيام الساعة ومن روحانية السماء إلى مادية الأرض نظرة تربط بين الفرد والجماعة، وبين الإنسان والكائنات الأخرى ويعبر عنه تعبيراً جميلاً صادقاً هادفاً محافظاً على نسب الكيان البشري. ومعطياً لكل جانب من جوانب كيانه نسبتها الصحيحة في لوحة الفن.

فللروح حظها وللعاطفة حظها وللعقل حظه وللخيال نسبته وللشعور نصيبه.

ثم تبرزُ كلُّ هذه الجوانب المتباينة والأحاسيس المتشعبة في لوحة الفن بشكل متماسك مترابط يحول دون بروز جانب على حساب جانب أو انحسار جانب أمام طغيان آخر وإذا حدث هذا فـلحظات يعود بعدها الوضع الشاذ إلى صورته الصحيحة.

فيغدو العمل الفني أكمل وأجمل وأشمل.

من هذه النظرة يكتسب الفن الإسلامي مفهومه ويستلهم معناه، لقد ضيّقت المذاهب الفلسفية نظرتها للإنسان والكون ومسخت من شمولية تصورها له ووضعت الحواجز وأسدلت الستائر بين جوانبه النفسية وجزّأت كيانه إلى روحي ومادي دون أدنى رابط يربطها أو صلة تشدّها.

فها هي ذي الهندوكية والبوذية تنادي برهبانية الإنسان وتنبثق عنها الفلسفة المثالية والنظرات التجريدية من لدن أفلاطون إلى هيجل في العصر الحديث، وتصدر عنها فنون وآداب. لقد نظرت إلى الإنسان نظرة ناقصة كمن ينظر إلى شجرة مشدوها بزهرها المتلفع بالنور ناسياً كيانها المنغمس في كيان الأرض.

ثم جاءت النظرة الداروينية التي تؤمن بمادية الإنسان وحيوانيته وانبثقت عنها اتجاهات شتى في الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس. ثم تلتها الماركسية في عالم الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ. والفرويدية في التفسير الجنسي للسلوك في علم النفس وغيرها من الفلسفات المتخصصة في تصوّرها للكون المحدودة في تخيلها له وقدصدرت عنها فنون وآداب لا تصور إلا اليسير من الصورة، ولا تصل إلا إلى الضحالة في العمق.

فالفن الفرويدي يصور الإنسان جسداً تحرّكه اللّذة ، وجسم الإنسان هو حقيقته وغريزة الجنس منقطعة الصلة عن جوانب

الحياة الأخرى الروحية والاجتماعية والفكرية.

والفن الماركسي كسابقه في فرديته وتخصّصه، وإن كان للجانب الاقتصادي فيه القدح المعلّى.فأيُّ كمال لفنٍّ يتجاهل روح الإنسان وفكره ومشاعره ويسجنه في حتميات اقتصادية وتاريخية ويجذبه إلى طين الأرض كلّما حلّق في رحاب السماء؟

ثم جاءت الرومانسية بنزعتها الفردية ونظرتها السلبية تلهج بآلام الفرد وآماله وتتغنّى بعشقه للطبيعة، بعيدة عن إيجابية الإنسان وتفاعله مع مجتمعه ومسؤوليته في إصلاح عيوبه وتقويم اعوجاجه، آمراً بمعروف ناهياً عن منكر.

فجاء فنها ناقصاً، فردياً، هاربا لا يصور واقعاً ولا يصلح فاسداً. وأخيراً جاءت المدرسة الواقعية ثورة عارمة تصبُّ حممها على كلّ فنٍ ملوّنٍ بالخيال، مزركش بالسحر، مزخرف بالظلال، موشّى بالصور.

فأتى فنها فناً واقعياً جافاً يصوّر الواقع كما هو كائن لا كما يجب أن يكون، وينظر إلى الأقدار المسيطرة على الإنسان على أنها أقدار منظورة مكشوفة وحتميات مرئية لا حيلة له للخلاص منها والانفكاك من إسارها.

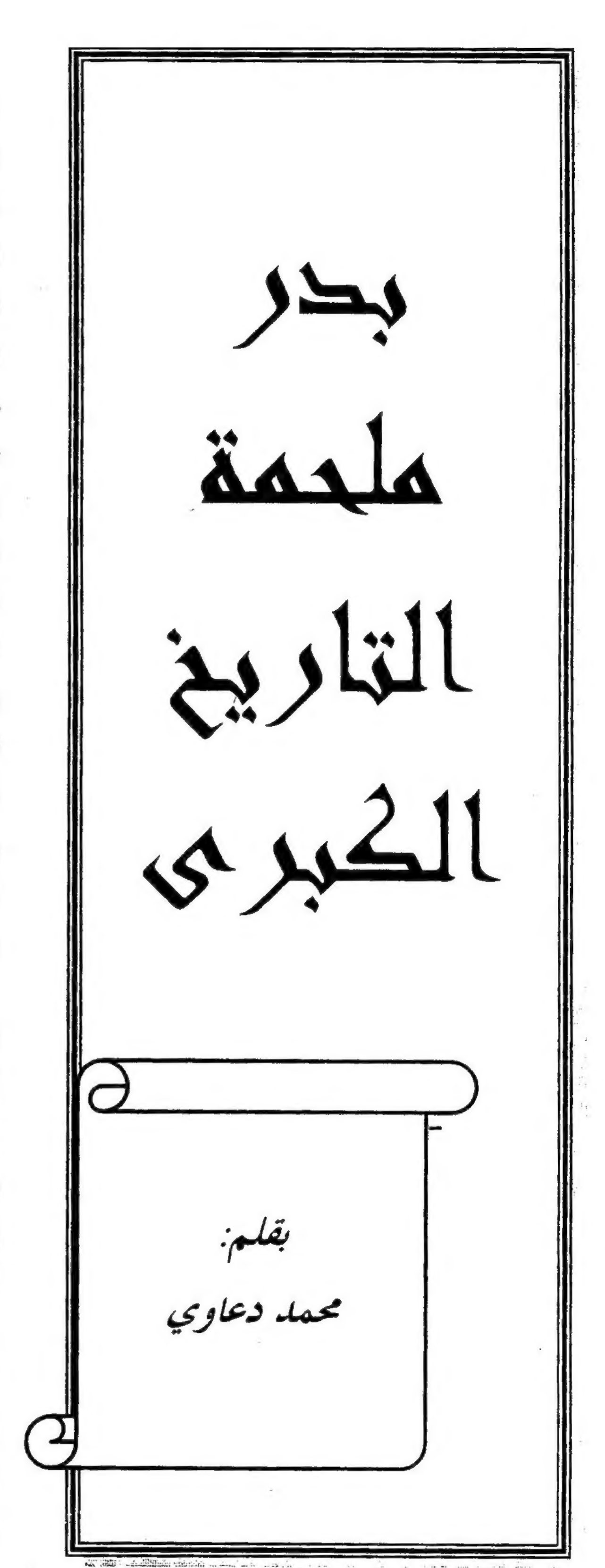
إنّه سجين الواقع بكلِّ ما فيه من قيم اجتماعية موروثة وصراع طبقي حاقد وأوضاع بيئية واقتصادية راسخة.

لقد تصورت الإنسان على هذا النحو فكانت واقعية ناقصة مبتورة لم ترو نزعة الخيال وغريزة التطلع إلى الغيب عند الإنسان، فهي لم تعط الصورة الصحيحة التي يجب أن يكون عليها المجتمع، ولم ترد للإنسان أن يكون سيد بيئته وواقعه طالما أنها، ولم تحرره من الحتميات التي سجنته في سراديبها.

على حين تداركت واقعية الإسلام كلّ هذه السلبيات، فقد أرادت للإنسان أن يكون سيد الكون مركزةً الضوء على لحظات ارتقائه لا على لحظات ضعفه. فالواقع السيئ في الإسلام ليس واقعاً. وهبوط الإنسان وضعفه أمراً طارئاً يجب تجاوزه.

هذه واقعية الإسلام وتلك واقعيةّ الغرب لا أريد أن أعلق بكلمة، فبضدها تتمايز الأشياء. هذا هو تصور الإسلام للفن فكلّ عملٍ فنيٍّ ساير هذا التصور فهو عمل جاد يستحق الاحترام ويحظى بالقبول، وكلُّ ما جانبه فن رخيص يفسد الأذواق ويشوه المفاهيم ويهدم القيم.

* * *




بدر معركة النصر و الفرقان التي فقأت عين الباطل و هزمت بنورها ظلمة الجهل و التخلف و حطمت أصنام الشرك و الوثنية بدر هي التي حررت العقول و أنارت القلوب بدر التي فتحث للإنسانية أفاقا لا متناهية بدر هي التي غيرت مجرى التاريخ و أعادت صياغة العالم و كانت الانطلاقة نحو تحرر الإنسان حيثما وجد على سطح هذه المعمورة بدر كانت صوت المقموعين و المستغلين و المستضعفين بدر كانت نصير المظلومين و المقهورين بدر كانت نصر من الله و فتح مبين صنعته يد القدرة الإلهية و حققت لها نتائجها الرائعة البالغة يوم أن ثبت ثلاثمائة و بضعة عشر رجلاً معظمهم بلا سلاح يصلح لمعركة و ليس لديهم غير فرس واحدة و في مواجهتهم زهاء الألف من المشركين المجهزين بالعدة و العتاد و كانت إرادة الله و مدده و معونته فتحقق النصر الساحق للفئة القليلة على الفئة الكثيرة و ما النصر إلا من عند الله.

سميت بدر نسبة للمكان الذي وقعت فيه و قد اختلفت الروايات حول تسميتها فمن قائل أنها نسبة لرجل اسمه بدر من بني كنانة اختلف في اسم أبيه حفر بئراً في هذا المكان فسميت البئر باسمه ثم غلب الاسم على المكان فسمي بدراً و من قائل أن سبب تسمية بدر هو أن بها بئراً مشهورة بصفاء مائها فكان الناظر على سطح البئر ليلاً يرى البدر فيها في الليالي المقمرة و على أي حال فأن هذه الروايات المختلفة تناقلها الناس عبر التاريخ مع أن الأسماء لا تعلل لكن بدراً مهما كان اسمها و شهرتها قبل المعركة فإنها إنما عرفت

واشتهرت وهب صوتها مدوياً عبر التاريخ بعد معركة بدر و ما حقق الله فيها من نصر و فلاح أنجز فيها وعده و نصر جنده و أعز رسوله و أذل الشرك و أهله فعرفت بدر بعدها و تعرف بهذا الشرف العظيم إلى أن يرث الله الأرض و من عليها.

و بدر أول معركة يخوضها المسلمون ضد كفار مكة في جيش منظم و قد كانوا من قبل يلتزمون الهدوء و السلام إذ لم يؤذن لهم فيه إلى أن نزلت الآية التي تحضهم على ذلك.

كان سبب معركة بدر خروج المسلمين لاعترض قافلة تجارية لقريش بقيادة أبي سفيان مقبلة من الشام تحمل أموالاً ضخمة إلا أن أبا سفيان استطاع أن يفلت بالقافلة و كان قد أرسل إلى قريش يستصرخها فخفت لنجدته ومنعها كبريائها وصلفها وغرورها من العودة رغم سماعها بنجاة القافلة و خرجت بطراً و شركاً و رياءَ لتصد عن سبيل الله و لتقاتل نبيه نبي الرحمة الذي رُبي و عاش بين ظهرانيها سيداً لها و ابن ساداتها خرجت قريش لتقاتل سيد قريش خرجت قريش لتقاتل ابن قريش ابن عبد المطلب ابن سيدها و كهفها بالأمس خرجت قريش لتقاتل أكثر الناس شفقة عليها و رحمة بها و لو عقلت لقبلت قدمه و لشربت غسالة رجليه و هكذا سعى صناديدها إلى مصارعهم و حتوفهم و ذلك جزاء الظالمين و العاقبة للمتقين و الأرض لله يورثها عباده الصالحين و يتم نوره و لو كره الكافرون.

و شاءت أرادة الله أن ينقلب الأمر فإذا جماعة المسلمين التي خرجت لتسترد بعض أموالها و لتمارس حرباً اقتصادية على قريش تجد نفسها في مواجهة حرب حقيقية بدل أن تواجه قافلة تجارية تعترض طريقها ورغم أن الاستعدادات غير كافية إلا أنه كان على المسلمين مواجهة الأمر الذي حزبهم و أن يتعاملوا مع معطيات الواقع الراهن و ما تمليه الظروف الجديدة على الساحة و صحيح أنه في ظاهر الأمر بدوا أنهم متجهون صوب مجزرة دموية قد تبيدهم عن بكرة أبيهم فلا تقوم لهم قائمة بعدها و لا يبقى لهم ذكر أو أثر إلا أن المسلم يواجه و لا يفر أو ينقلب على عقبيه و هو متيقن أن لطف الله يحيط به و أن الأمر المقبل عليه باطنه الرحمة والمدد والمعونة وظاهره الصعاب و المستحيلات.

عقد النبي اجتماعاً طارئاً مع صحابته لتدارس الحادث و بحث و جهات النظر و الخروج من المأزق بحل ينقذ الموقف و يحفظ أمن جماعة المسلمين و سلامتهم و يحمي كيانهم و يصون هيبتهم فلم ينفرد برأيه و هو النبي المرسل و الموحى إليه من الله ضارباً المثل لكل الحكام و القادة و كان يؤسس لنظام الشورى و لديموقراطية حقيقية لا تعرف الخداع و المواربة و لا تستعمل الكذب على الجمهور و لا تمارس الحيل و الألاعيب و لا تتبع طرائق التضليل و الأساليب الملتوية و إنما تقوم على الشفافية و المصارحة و حرية الرأي و احترام حقوق الإنسان و صون كرامته و السمو به إلى عوالم روحية.

و هكذا توجه النبي القائد إلى شعبه " أشيروا علي أيها الناس" فتكلم الصديق فأحسن و تلاه الفاروق فأحسن ثم لتاه المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض في ما أمرك

الله فنحن و الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا و أنا معكما مقاتلون و الله لو سرت بنا إلى برك الغماد (موضع في اليمن) لجالدنا معك دونه حتى تبلغه فدعا له بالخير.

و بعد أن سمع مقالة أصحابه المهاجرين عاد و كرر ندائه "أشيروا علي أيها الناس" ففهم الأنصار أنه يعنيهم و يخصهم و كانوا أول الأمر قد فوضوا إخوانهم المهاجرين بالكلام عنهم فقام سعد بن معاذ سيد الأوس فقال "آمنا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به هو الحق و أعطيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا على السمع و الطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً و إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء و لعل الله يريك منا ما تقريه عينك فشر بنا على بركة الله". فسر رسول الله صلى الله عليه و سلم و استبشر و قال:" سيروا و أبشروا فأن الله وعدني إحدى الطائفتين و الله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

و هكذا كان القرار"الحرب و المواجهة" و أخذ النبي صلى الله عليه و سلم بتنظيم أمور المسلمين و التخطيط للحرب و قد سبقت المعركة حرب استخباراتية و هو ما لم تعهده العرب من قبل وأحاط النبي صلوات الله عليه استعداداته العسكرية بسرية كاملة و تكتم شديد و بدا أن عنجهية قريش و فوضويتها تواجه بدولة ذات تنظيم أداري عالي المستوى.

عمل المسلمون بتوجيهات النبي و أخذوا بالأسباب المتاحة أمامهم و توكلوا على الله فكان مدد الله و معونته فإذا المطر يكون خيراً للمسلمين تتثبت به أقدامهم و في نفس الوقت يكون شراً ووبالاً على المشركين تسيخ من جرائه الأرض بأقدامهم وبخيولهم فتثقل حركتهم كما أظهر المسلمون تفانياً في الدفاع عن النبي صلى الله عليه و سلم و الذود عنه و حمايته و فدوه بالمهج والأرواح.

و تجلى ظهور العبقريات العسكرية في صفوفهم في قادة الجند الميدانيين و المهندسين العسكريين و برز الحباب بن المنذر و سعد بن أبي وقاص كأروع ضباط للهندسة العسكرية في التاريخ.وإذا بقريش تجابه بتكتيكات لا عهد لها بها من قبل.

كان كل شيء مسخراً للمسلمين الطبيعة والأرض والمكان والزمان والجمادات و كأنها قد نفخت فيها الأرواح فإذا هي جنود تقاتل و ما يعلم جنود ربك إلا هو و إذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب.

وكان المدد الإلهي يحف بالمسلمين من كل الجهات و لم يكن عليهم إلا أن يصبروا ويثبتوا و يأخذوا ما استطاعوا من الأسباب المتاحة بعد توكلهم على الله و تفويض أمورهم إليه.

و لم نجد في استعداد المسلمين ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن النصر سيكون في جانبهم فقوتهم ليست مناظرة لقوة قريش وعددهم ليس بمتكافئ مع عدد قريش بل كانت قريش في مركز الثقل وزين لها النصر غرورها و خيلاؤها و ما تتمتع به من إمكانات و قوة.

لقد هدي المسلمون إلى الترفع عن المادة و تفريغ القلب من الحطام ووجهوا إلى الثقة بالله و التعلق به في أخلاص و تجرد. إنهم صدقوا ربهم في الجهاد و أخلصوا له بقلوبهم فهيأ لهم أسباب النصر المادية و المعنوية و أتم نعمته عليهم من فضله بأكثر ما كانوا يودون و هكذا كان النصر ثمرة التفرغ للخالق و توجيه القلوب إليه.

كانت قريش في وفرة من العدد والعدة والطعام الذي يفيض عن الحاجة و قد انتفخت صدورهم كبراً و خيلاء و قالت على لسان جاهلها فرعون هذه الأمة أبو جهل "والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر فنقيم ثلاث فننحر الجزور و نطعم الطعام و نسقي الخمر و تعزف لنا القيان و تسمع بنا العرب و بمسيرنا و جمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها" صورتان متضادتان تماماً التواضع و التوكل على الله و الضعف و العبودية له و صورة الاستكبار و الغطرسة و الخيلاء. الطهر و النقاء في مقابل الفسق و الفجور فكان لا بد أن تنتصر الصورة المشرقة على الصورة المظلمة.

لقد بانت نذر هزيمة المشركين منذ الليلة السابقة على المعركة فلم يكونوا على قلب رجل واحد تحسبهم جميعاً و قلوبهم شتى و بدأ الوهن يتسلل إلى نفوسهم وصفوفهم و ربما كان أكثرهم يتمنى الرجوع دون قتال لأكثر من سبب وهم برغم استعداداتهم المادية على الوجه الأتم لكنهم فقدوا أهم أسلحة المعركة الأيمان و وحدة الصف ووحدة الهدف ولقد كانوا يعرفون ذلك و يعرفون أنهم ليسوا على قلب رجل واحد ربما كانوا يعلمون و يشكون على الأقل في أن النصر سيكون لهم و بذلك هزمت قريش هزيمة نفسية قبل بدء المعركة و لم تنفعها قوتها و عدتها و عديدها و قذف في قلوب مقاتليها الرعب و دب فيهم الخوف و الذعر و باتوا يرقبون مصيراً مجهولاً لا يعلمون على أي حال ستؤول أمورهم و بدا ما يخبئه الغد لهم أمراً يزلزل كيانهم و يبعث فيهم القلق و يشعرهم بفقدان الأمان.

فوجئت قريش بجيش المسلمين المنظم و طرائقهم المتبعة في القتال و التي لم تألفها من قبل أو تعرفها لا هي ولا قبائل العرب فكان تأثير صدمة المفاجأة و الدهشة التي أصابتها قوياً جداً و هو ما سبب إرباكاً كبيراً في قواتها و خسرت من اللحظات الأولى للحرب خيرة فرسانها و كبراءها مما زعزع من معنوياتها وفتّ في عضدها. إذن قريش انهارت منذ بدء المعركة و لاحت نذر هزيمتها في الأفق و بدا مؤكداً خطأ حساباتها و تقديراتها فقد كانت تظن أن الحرب مع المسلمين لا تعدو كونها نزهة و ما هي إلا كرة أو كرتين فينتهي أمرهم و يقضى عليهم فترتاح قريش و يخلو لها وجه الزمان و تسعد أبد الدهر. لقد استطاع المسلمون بدقة تنظيمهم و خططهم الحربية المبتكرة و ترتيباتهم العسكرية الجديدة أن يتفوقوا على قوة المشركين الكبيرة و كثرتهم العددية وأن يتجاوزوا مشكلة النقص في العدد و العتاد و فارق القوة. سجل المسلمون بطولات خارقة و استبسلوا استبسالاً منقطع النظير يوم بدر في سبيل نصرة دعوتهم و عقيدتهم فكانت حربهم حرباً رسالة تتسامى فوق كل غرض دنيوي لا يهمها إلا إعلاء كلمة

الحق و نشر العدل و السلام بين البشر و برزت أسماء أبطال كثيرين منهم رسخت في ذاكرة التاريخ و الشعوب و دخلت في نطاق الأسطورة و الرمز كعلي و حمزة و أبو دجانة و الزبير بن العوام و سعد بن معاذ و عمير بن الهمام و عكاشة بن محصن و مصعب بن عمير كان الواحد من أبطال فرسان المسلمين يقاتل كأنه جيش يصول و يجول ناشراً الرعب و الذعر في أفئدة المشركين. لم تكن قريش تواجه جيشاً عادياً إنه جيش نوراني ملائكي جنوده قديسون كللوا بالمهابة و جملوا بالعزة أذا قاتلوا قاتلوا كآساد الشرى يولي العدو فراراً من منظرهم و يمتلئ رعبا في قلوبهم أيمان لا تزعزعه الجبال و في عقولهم يقين لا يعرف الشك خطواتهم واثقة و سيوفهم ماضية و عزيمتهم لا يفلها الحديد. إنه أعظم جيش في التاريخ.

و كان بطل الأبطال و أشجع الشجعان رسول الله صلى الله عليه و سلم فعن علي رضي الله عنه قال : "لقد رأيتنا يوم بدر و نحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه و سلم و هو أقربنا إلى العدو و كان من أشد الناس يومئذ بأساً)) و كان رسول الله هو القائد الأعلى لهذا الجيش و نائبه و رئيس أركانه و المشرف على حرسه الخاص و أمنه الشخصي أبو بكر الصديق الذي كان يلازمه كالظل و يقوم بتأمين أمنه و سلامته صلى الله عليه و سلم و السهر على راحته فقد روى الصحابة أنهم قالوا: "جعلنا لرسول الله صلى الله عليه و سلم عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوي إليه أحد من المشركين فوالله ما دنا أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه فهو أشجع الناس"

وكان الصديق يشفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرى من شدة إقباله على الدعاء والإبتهال وكثرة إلحاحه في طلب النصر من الله فيأخذ بمنكبيه ويقول يا رسول الله إن الله منجز لك ما وعدك وقد روى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ((لقد رأيتنا يوم بدر وما منا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يصلي ويدعو)).

لا شك أن الله لا يخلف الميعاد و لكن الاستغراق في التضرع و الدعاء هو وظيفة العبودية التي خلق الإنسان من أجلها و ذلك هو ثمن النصر في كل حال وهذه العبودية تجلت في طول دعاء النبي و شدة ضراعته و مناشدته لربه أن يؤتيه النصر هي الثمن الحقيقي الذي استحق به ذلك التأييد الإلهي العظيم في تلك العركة و ما تقرب متقرب إلى الله بصفة أرضى لله من ذل العبودية له وما استأهل إنسان استجابة لدعائه كمن استأهل ذلك بواسطة الانكسار و التخلي عن الحول و القوة بين يدي الله عز و جل فلا عجب أذا نزلت ملائكة الخير تنفخ في قلوب المسلمين روح اليقين و تحضهم على الثبات و الإقدام و هذا من أندر الخوارق التي أيد الله من خلالها عباده و نصرهم من حيث لا يحسبون فأمدهم بملائكة مردفين يقاتلون معهم وهذه حقيقة ثابتة في الكتاب و السنة وقد روى ابن هشام ومن قبله ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه و سلم غفا غفوة ثم انتبه فقال "أبشر أبا

بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده في ثنايا النقع" و روى البخاري بلفظ "هذا جبريل أخذ بزمام فرسه عليه أداة الحرب" جيش قائده الأعلى محمد بن عبد الله الهاشمي أفضل خلق الله و مدده جبريل سيد الملائكة لا بد أن ينتصر. قاتل هذا الجيش بروح جماعية فكلٌ كان يعرف الدور الذي أوكل إليه و كان قادة الجيش يعرفون كيف يحققون أهدافهم الاستراتيجية الواضحة أمام أعينهم في أقصر وقت و أقل جهد وما بلغت المعركة لحظات الحسم حتى استنفذوا جهد أعدائهم و ألحقوا بهم خسائر فادحة.

و قد نزل النبي صلى الله عليه و سلم بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال و معه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبالون شيئا فانكسرت قريش و أخذها الفزع وصاح النبي و هو يرى كبرياء الكفر يتمرغ بالتراب "شاهت الوجوه" فانهزمت قريش و قد كان آل بيت النبي صلى الله عليه و سلم يقاتلون بين الناس بل في الصفوف الأمامية و قد تلقوا الضربة الأولى عن المسلمين و قدموا أول شهيد في المعركة ابن عم رسول الله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

و حاول أبو جهل أن يوقف سيل الهزيمة النازل بقومه فأقبل يصرخ بهم و غشاوة الغرور لا تزال ضاربة على عينيه "واللات و العزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال خذوهم أخذاً"و ماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة لكن أبا جهل كان تمثالاً للعناد حتى آخر رمق والطمس المنسوج على بصيرته جزء منه لا ينفك عنه أبداً لذلك أقبل في شراسة و غضب في وسط غابة من الرماح تحيط به لحمايته و تشاء أرادة الله أن يذل أنف هذا المتغطرس فيكون مصرعه على يد غلامين ناشئين من غلمان المسلمين و يلفظ أبو جهل أنفاسه الأخيرة تحت أقدام عبد الله بن مسعود و تفرق المشركون بعده بدداً و أطلقوا سيقانهم للريح تبعثرهم في فجاج الصحراء كما تبعثر كثيباً من الرمل المنهار تاركين قتلاهم السبعين و من وقع في الأسر منهم يقرر المسلمون ما يفعلون بهم.

و فتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم ورد عليهم هذا الظفر الحياة و الأمل و الكرامة و خلصهم من أغلال ثقال. وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عليين. و هكذا دارت الدائرة على المشركين و كانوا قد أرادوها مجزرة للمسلمين يستأصلون فيها شأمتهم ويبيدونهم عن بكرة أبيهم و أرادها الله كارثة لمشركي قريش الذين هزموا هزيمة منكرة و قتل من سادتهم و أشرافهم و زعمائهم عدد كبير كما أسر منهم عدد كبير وهذا آخر ما كانت قريش تتوقعه بل لم يكن يخطر لهم على بال و بذلك يكون المسلمون قد وجهوا إلى كيان قريش و إلى دولة الكفر في مكة ضربة مزلزلة و منذ ذلك اليوم و نجم المسلمين في صعود.

أمر رسول الله بمواراة جثث المشركين تكريماً لإنسانيتهم و نهى عن التمثيل بهم ولو وقع المسلمون في يد المشركين لعاملوهم بالعكس. كما عاملوا الأسرى بمنتهى الرحمة و الإنسانية رغم أن بعضهم كانوا مجرمي حرب

طالما نكلوا بالمسلمين من قبل بل أن المسلمين أعطوا للأسرى حقوقاً لأول مرة في تاريخ البشرية.وكان رسول الله من قبل قد عامل المشركين خلال المعركة برأفة و رحمة و تركهم يشربون من الماء بعد أن أنهكهم العطش و لم يتركهم للموت وكان حتى اللحظات الأخيرة لا يريد الحرب و يتمنى أن تحل الأمور سياسياً بدلاً من الحل العسكري وكان النبي ينتظر هذا الدور من عتبة بن ربيعة صاحب الجمل الأحمر الذي كان معارضاً لفكرة الحرب و مؤيداً للتفاوض والحل السلمي و قد قال عنه صلى الله عليه و سلم "أن يك في أحد من القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا)) و لكن عنجهية أبي جهل وغروره و طيشه غلبت حكمة عتبة و تعقله وكان رسول الله قد عرض على قريش الصلح وأن ترجع وأوفد أليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لهم على لسانه "ارجعوا إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه مني" و قد حاول حكيم بن حزام أن يقنعهم بهذا الحل فأبى أبو جهل و كان إباؤه نقمة على قريش.

كان لمعركة بدر أثر كبير في التاريخ الإسلامي فقد كانت أول صدام جدي بين المسلمين و قريش انتصر فيه المسلمون على الكفار و تجلى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم و تفانيهم في نصرة دينهم و قد آلم ذلك رجالات قريش فأجمعت أمرها أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين وبلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم في تلك الغزوة أن سموها غزوة الفرقان لأن الله سبحانه و تعالى فرق بها بين الحق و الباطل وأعز الإسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش و أسر كبرائهم مع قلة عدد المسلمين و كثره عددهم كما سمو كل من شهدها من المسلمين بدرياً و كانوا يعتزون بهذه التسمية و يفخرون .

و بلغ من تأثر قريش لهزيمتهم في تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب الرسول و القضاء على أصحابه و من ثم بدأت سلسلة من الحروب كان النصر فيها حليف المسلمين إللهم إلا غزوة أحد .

كانت معركة بدر أول معركة متكاملة واجه فيها المسلمون الشرك والبغي والظلم وجيش المسلمين في هذه المعركة كان أول جيش نظامي عرفه العرب في تاريخهم و أصبح المسلمون شيئاً جديداً و كياناً جديداً و أمة جديدة حول عقيدة ورسول وأهداف لها نظام عسكري وسياسي وخط سلوكي لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل و بات ثابتاً أن الأمة الإسلامية الناشئة حقيقة واقعة لا مراء فيها.

لقد كانت بدر من أعظم المعارك في التاريخ الإسلامي إذ كان بها ظهور الإسلام و وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألداء للإسلام و دخل الرعب في قلوب العرب الآخرين فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون جيوش أعدائهم ويهزمونهم فلا جرم أن يتخذ المسامون يوم النصر في بدر و هو السابع عشر من رمضان عيداً يشكرون فيه نعمة الله عليهم.

رمضان/ شوال ١٤٣١ هجرية




# هلال رمضان

قطر

محمد المطوع

رمضـــان هـــلّ بنـــوره الـــبرّاق
شـــهر الصـــيام وموســـم الأرزاقِ
اللّـــه أنـــزل فيـــه خـــير كتابـــه
يغـــني العبـــاد بفـــائض الأخـــلاقِ
فيـــه الهـــدى والبيّنـــات يضـــمّها
نـــورٌ لقارئـــه علـــى الآفـــاقِ
سـارعْ إلى تطهير نفسك يا أخي
عـــن غيّهـــا تنجـــو مـــن الإرهـــاقِ
وتنال حظّك من صيامك في غدٍ
يـــوم القبـــول وموعـــد المشـــتاقِ
مـن صـام للمـولى وصـان جوارحـاً
عمّـــا يضـــيع الأجـــر بالإخفـــاقِ
يُجزيـــه ربّ العـــرش دون تريّـــبٍ
ويثيبـــه دار النعـــيم البـــاقي







صـون اللسـان عـن الرذائـل واجـبٌ
إن كنـت تـزعمُ صـائماً يـا واقـي
فالصـوم لـيس عـن الطعـام كفايـةً
أو عـن شـرابٍ صـافي الـدّفاق
والإبتعـاد عـن الحليلـة مُزهـدا
طـول النهـار يكـبحِ الأذواق
لكنّـه حفـظٌ لبطنـك مـا حـوى
والـرأس تحفظـه مـن الإقـلاق
لا أن تصـوم عـن المبـاح مهتّكـاً
أعـراض بعـض النـاس بالمسـلاقِ
يـا إخـوة الإسـلام هـذا شـهرنا
أهـلاً بـه كالشـمس في الإشـراق
رمضـان جـاء مبشّـراً بقدومـه
يحكـي لنـا عـن ماضـي الأعـراق
عـن مجـدنا في يـوم بـدرٍ مخـبراً
والفـتح صـدقاً جـاء بالإحقـاق
وكـذا الفتوحـات الـتي كانـت لنـا
وقعـت بشـهر الصـوم كالميثـاق






لمــــا تفكّـــك صـــفّنا لهواننـــا
كـــرّت علينـــا علَّـــةُ الإشـــفاق

نســـعى ولكـــن ســـعينا متذبـــذبٌ
جهـــد الضـــعيف يبـــوءُ بالإزهـــاق

في أي شـــيءٍ عزّنـــا وبقاؤنـــا
في العُـــروة الـــوثقى مـــع الإنفـــاق

في طاعـــة الـــرحمن جـــلّ جلالـــه
إعزازنـــا في طاعـــة الخـــلاّق

هـــل تـــدركون بـــأيّ شـــيءٍ نصـــرنا
في وحـــدةٍ مضـــمونةٍ ووفـــاقِ

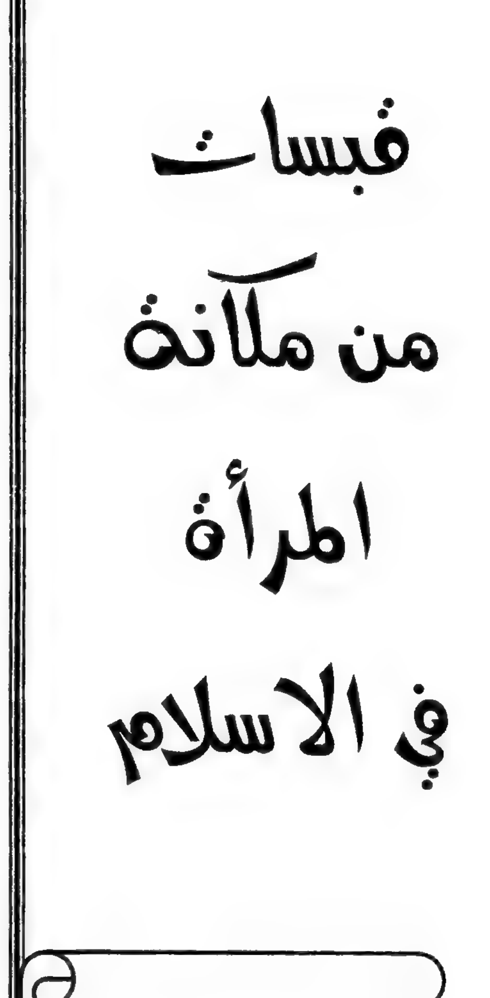
أفـــلا نعـــود إلى التـــآلف بيننـــا
يـــوم الصـــفا يـــدنو بنـــا وتلاقـــي

هـــذا كتـــاب الله خـــيرُ ســـلاحنا
نحيـــا بـــه مـــن بـــاطن الأعمـــاق

رمضـــان عوّدنـــا علـــى نفحاتـــه
في كـــلّ عـــامٍ يـــأت بالإغـــداق

اللّـــه أســـألُ أن يبـــارك فعلنـــا
ويغسّـــل الأدران بالإعتـــاق




إن المرأة في الوقت الحالي ظفرت بحقوق كثيرة وحظيت بمكانة اجتماعية كبرى وهذا من اعتناء الشارع بها وإعطائها مكانتها اللازمة.

علماً بأن المرأة عند الأمم القديمة كانت من سقط المتاع تباع وتشرى في الأسواق وقد سموها رجساً من عمل الشيطان وحرموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الأطفال.

- فقد جاء في شرائع الهند:

إن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة.

وجاء أيضاً:

إنها كائن لا نفس له، وإنها لن ترث الحياة الأخروية وإنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم، وان لا تضحك بل ولا تتكلم وعليها أن تمضي أوقاتها في الخدمة.

- وفي فرنسا عام ٥٨٦م

اجتمعوا ليبحثوا "المرأة أتعد إنساناً أم غير إنسان"

فقرروا أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل.

- وفي انكلترا

أصدر الملك هنري الثامن أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء، والنساء كن طبقاً للقانون الانجليزي للعام ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين ولم يكن لهن حقوق شخصية ولا حق لهن في تملك ملابسهن ولا في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين.

- وفي بلاد العرب قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

كانت المرأة أسوأ حالاً ممتهنة في كثير من أحوالها فكان العرب يأدون البنات أي تدفن وهي على قيد الحياة خوفاً من العار فمنعت

من حق الحياة، وكانت المرأة لا تورث وإنما تكون متاعاً يجيء الوارث ويلقي ثوبه على زوج مورثه ثم يقول: ورثتها كما ورثت ماله، فيكون أحق بها من نفسها إن شاء زوجها وأخذ مهرها لنفسه أو حرم عليها الزواج.

وكانت تكره على البغاء ليكسبن لهم مالاً.

وكانت محلاً لقضاء الشهوة وتحصيل الولد لا النبت عن طريق نكاح الخدن أو الاستبضاع أو البدل أو البغايا وغير ذلك.

فجاء الاسلام وحال المرأة على ما وصفت وزيادة، فقام بتحرير المرأة مما وقع عليها من حيف وظلم، ورفع مكانتها عالياً بحيث لم تصل إليها في آخر تطورات المدنية.

- فجعل الاسلام المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر منهما الإنسان وجعل ذلك نعمة ومنّة على الناس

  فقال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً" النساء(١)

- وجاء الاسلام مقرراً أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة كالرجال.

  فقال تعالى: "ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً" النساء(٢٤)

- وأمر الاسلام المرأة بتكاليف العقيدة وفضائل الأخلاق كما أمر الرجال.

  فقال تعالى "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً" الأحزاب(٣٥)

- وجعل الاسلام مسؤولية المرأة مستقلة عن مسؤولية الرجل فلا يؤثر عليها وهي صالحة فساد الرجل وطغيانه، ولا ينفعها وهي طالحة صلاح الرجل وتقواه.

  فقال تعالى: "ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين"

  وقال تعالى: "وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين" التحريم(١٠-١١)

- الاسلام ساوى بين المرأة والرجل في حق المبايعة فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الرجال على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة وكذلك بايع النساء.

- ونظر الاسلام للمرأة فأثبت أنها والرجل سواء في النشاط الاجتماعي

  فقال تعالى: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم" التوبة(٧١)

- وحرم الاسلام وأد المرأة وأعطاها بذلك حق الحياة.

قال تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهمَ وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً" الاسراء(٣١)

- وشرع الاسلام توريث المرأة وبيّن حقوقها في الارث زوجة أو أماً أو أختاً أو بنتاً أو جدةً وغير ذلك

قال تعالى: "وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً" النساء(٧)

- وجاء الاسلام محرماً أن تكون النساء إرثاً للوارث كإرثه لمتاع مورثه وماله فأعطى المرأة حصانتها ورفع عنها يد الورثة.

"يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً" النساء (١٩)

- منع الاسلام العرب أن يكرهوا فتياتهم على البغاء ليكسبن لهم مالاً

فقال تعالى: "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا" النور(٣٣)

- وكان الاسلام رادعاً أشد الردع عن ما يفعله بعض العرب حيث يرثون زوجات أبيهم في جملة المتاع فيصبحن زوجاتهم.

فقال تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا" النساء(٢٢).

- وحظر الاسلام بالتحريم الشديد كثيراً من أنواع الزواج الفاسد الذي كان عند كثير من الشعوب وذلك حفظاً على مكانة المرأة وانسانيتها وآدميتها فجعل لها زواجاً مثالياً بأركانه وشروطه وسننه وآدابه.

- فشرع لها الخطبة تراه ويراها وفق الضابط الشرعي فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما

- وضمن لها حقها في الهدايا لو كانت بين الخاطبين فيما لو تم العدول بسبب أم بدون سبب

- واعطاها إن كبرت وبلغت سن البلوغ واختارت بالكفاءة ومع مهر المثل فلها أن تزوج نفسها بعبارتها وبحضور شاهدين ولكن إن استأنست بمشورة أبيها كان ذلك أفضل

- وأعطاها خيار البلوغ إن زُوجت وهي صغيرة حتى لا تكره على الزواج ممن لا ترغب منه.

- وسمح لها أن تكون شاهدة في عقد زواج غيرها مع امرأة اخرى ورجل (فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء)

- أذن له أن تشترط ما يحقق مصلحتها كزوجة وأم وذلك أثناء ابرام عقد الزواج كأن تكون العصمة بيدها أو عدم السفر معه أو غير ذلك مما لا ينافي مقتضى العقد

- أوصى الرجل بها خيراً معاملة ومعاشرة وصحبة ومؤانسة (استوصوا بالنساء خيراً)

- جعل الانجاب وعدمه بين الزوجين وفق التراضي لا الإكراه ليتحملا معاً المسؤولية

- أباح لها العمل وإن كانت زوجة ولكن لا تنسى ما عليها من حقوق وواجبات تجاه أسرتها من زوج وأبناء...

- شجعها على التعليم والتعلم بدأ من نفسها فأولادها لنشئ جيلاً يقرأ ولا يجهل

- ملكها حق التصرف بمهرها ابراء او مطالبة أو زيادة أو الحط منها ولكن أمام القاضي جعلها شريكة الزوج في تدبر الشؤون الأسرية فأمره بالمشاورة وطلب النصيحة منها وربما أصابت أكثر من غيرها وعرفت الحق والمصلحة بناء على فهمها ووعيها.
- حذر من اهانتها أو ضربها أو شتمها أو قذفها أو الاعتداء على مالها أو على حق من حقوقها كمخلوق فلها حرية التصرف ولكن بشرط أن لا يؤثر على مملكتها الزوجية
- ترك لها ما هي عليه من معتقدات كالكتابية فلا يستطيع زوجها المسلم أن يلزمها بتغيير دينها بل لها أن تبقى مع ممارسة ما تشاء من طقوس دينها إذ لا إكراه في الدين
- أعطاها الحق أن تطلب التفريق وفق المخالعة إن كانت تكرهه قلباً وتأبى الحياة أو العيش معه نفسياً لا حسياً ولكن تراعي التقوى في ذلك.
- جعل لها أمام القاضي الحق في طلب التفريق بسبب الشقاق والضرر الذي يلحق بها منه أو بسبب الغيبة والانقطاع عنها ولو بالسجن أو بسبب المرض والعيوب التي تمنع استقرار الحياة الزوجية بينهما أو بسبب الإعسار أو الفقر أو البخل الذي يحرمها من الحياة الهادئة المستقرة.
- ولم يلزمها الشارع بشيء من الانفاق على نفسها أو على زوجها أو أولادها ولو كانت تعمل بكسب أو تمتلك المال إلا إن كانت متبرعة بذلك فلا مانع منه. لأنه جعل الانفاق على الزوج (لينفق ذو سعة من سعته.."
- وضمن لها الحياة الكاملة من معاشرة بالمعروف وصحبة مع زوجها بالصدق والاخلاص ومسكن شرعي آمن ونفقة لازمة كافية وثبوت لنسب أولادها من أبيهما وإعطائها حقها وفق ما يلزم.
- وأبقى له حق الحضانة لأبنائها بعد الطلاق أو التفريق لأنها أكثر شفقة عليهم وأعمق حناناً وألصق بمصلحتهم.
- وأوجب لها نفقة العدة إن طلقت مع أجرة الرضاع والحضانة إن طلبت ذلك.وغير ذلك مما منحه الاسلام للمرأة رفعاً لقدرها وعلواً لمكانتها وحفظاً لآدميتها وبقاء لإنسانيتها ورعاية لمشاعرها وأحاسيسها ورغبة في انصافها.

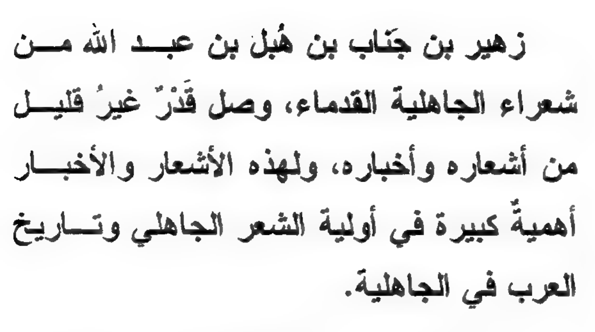
وبهذا كان للمرأة مشاركات في عصر النبوة وما بعده فهي تمارس نشاطاً سياسياً وتمضي مع النبي صلى الله عليه وسلم في قضاء حوائجها وتخطب أمام الرجال وتحاور وتناقش وتقيم الولائم وتستقبل الضيفان وتشهد المناسبات العامة وتنظم الشعر وتنشده وتعمل وتتجر وتداوي الجرحى وتقاتل وتغني غناءً ملتزماً وتعلم الرجال ويأخذون منها ويروون عنها وتقوم بمهام قضائية واجتماعية وتعود المرضى وتجادل بالحجة وتشترك معهم في المسجد وتؤم النساء وغير ذلك من المنح الاسلامية والعطايا الربانية للنساء فهن شقائق الرجال.

* * *

د.محمد حسان عوض: مدرس في كليتي الشريعة والحقوق، استاذ أصول الفقه والأحوال الشخصية.

# زهير بن جَنَابٍ الكلبيّ

بقلم:
د. محمد شفيق بيطار



زهير بن جَنَاب بن هُبَل بن عبد الله من شعراء الجاهلية القدماء، وصل قَدْرٌ غيرُ قليل من أشعاره وأخباره، ولهذه الأشعار والأخبار أهميةٌ كبيرة في أولية الشعر الجاهلي وتاريخ العرب في الجاهلية.

ويرجع نسبه إلى قبيلة كلبِ بنِ وَبْرة [ر]، وهي أبرز قبائل قضاعة [ر] التي يعدّها النّسّابون ثُلُثَ العرب.

ويُنْسَب إلى والدِه (جَنَاب) ضَرْبٌ من الغناء عند العرب هو (الغناء الجَنَابيّ) ومنه كان أصل الحُداءِ كلِّه، ولعلّ في هذا ما يُرَجِّحُ أنَّ جَنَاباً كان شاعراً، لمُلازمة الغناء والشعر، ولكن لم يصل شيء من الشّعر يُنسبُ إليه.

وجَدُّه (هُبَل بن عبد الله) كانَ شاعراً، رُوِيَتْ له أبياتٌ من الرَّجَزِ، ولايعلم شيء عمَّن سبق جَدّه.

أنجب زهيرٌ سبعةَ أولادٍ ذكور، كان أنجبَهم فيما يظهر (عامر بن زهير) وكان شاعراً فارساً داهية، ولكنه مات قبل أبيه فرثاه، ولم يكن في سائر أبنائه من يراه أهلاً للرئاسة، ولذلك نصَّب ابن أخيه (عبد الله بن عُلَيْم بنِ جَنَابٍ) لمَّا أسنَّ. غير أنَّ من نسلِ أبنائه عدداً كبيراً من الشعراء بلَغوا ثمانية عشر شاعراً، إذ قال أبو الفرج الأصفهاني: «لم يكن شاعرٌ في الجاهلية والإسلام ولَدَ من الشعراء أكثر من زهير بن جناب».

وزهير رأسٌ من رؤوس العرب في الجاهلية، فقد وصفه المؤرخون وأهل الأدب بأنّه كان من رجال العرب: لساناً، ورأياً، ووفادةً على الملوك، وكانت فيه عَشْرُ خِصالٍ لم تجتمع لرجل من أهل زمانه، إذ كان: سيّدَ قومه، وشريفَهم، وخَطيبهم، وشاعرهم، ووافدهم إلى الملوك، وطبيبهم، وكاهنهم، وله البيت فيهم، والعدد منهم. وقيل: إنه سمي كاهناً لشدة رأيه. ولم تجتمع قبائل قضاعةَ على قائد واحد إلاَّ عليه، وعلى رزاح بن ربيعة العُذْري.

وكان ميمون النَّقيبة في غزواته، ويُعَدُّ أحد الجَرَّارين من العرب، والجرار عندهم من يقود ألف فارس، وله غزوات كثيرة يعدونها بالمئات. وله سيف مذكور في سيوف العرب يُسَمَّى: (البَجّ) أو (المَجّ).

كان زهير وثنياً كمعظم العرب، وورد في شعره (وُدّ) معظِّماً له وهو صنم قبيلة كلب منصوب في (دومة الجندل). فقال يخاطب امرأة:

فحيّاك وَدٌّ! زوّدينا تحيَّةً
لعلَّ بها عانٍ منَ الأَسْرِ يُطْلَقُ

كما كان زهير وإخوته بنو جناب من الحُمْس، وهم المتشددون في دينهم، وكان أصل التحمُّس في قريش، وذلكَ بأن فرضت على نفسها أشياء لاتفرض على غيرها ممن يحجّ البيت الحرام، ثم جعلت ذلك لمن ولَدت نساؤها في غيرها، وكانت جَدّة جناب لأمّه هي: مجد بنت تيم الأَدْرَمِ بن غالب بن فهر القرشيّة، فتحمس من ولَدَتْهُمْ، ويؤكد هذا التحمس أنَّ زهيراً غزا قبائل (غطفان) حين بَنَتْ بناء يُقال له (بُسّ) وجعلت له حَرَماً وأرادت الاجتزاء به عن الكعبة، فعطل زهير ذلك.

ويعد زهير من المعمرين، واختلف في مبلغ عمره بين مئة وخمسين سنة وأربعمئة وخمسين، ولاشك أن هناك مبالغة في بعض ما ذهبوا إليه، غير أنَّ أخباره تؤكّد قول من ذهب إلى أنَّه بلغ المئة والخمسين، أو زاد قليلاً.

ومن أخباره المهمة أنَّ أبرهة الحبشي غزا نجداً فأكرم زهيراً واصطفاه على سادة العرب، وأمّره على بكر وتغلب، فاشتد عليهم زهير في طلب الخَرَاج، فحاولوا اغتياله ونجا، ثم جمع لهم وغزاهم، و أسَرَ كليباً ومهلهلاً التغلبيين.

ومنها أنه شارك في يوم السُّلاّن، بين ربيعة مع مضر وقضاعة و أهل اليمن.

وله أخبار أخرى. وأما وفاته فقيل إنها كانت بسبب مخالفة ابن أخيه (عبد الله بن

عليم) له، بعدما نَصَّبه زهير للرئاسة بعدما أسنَّ، فشرب الخمر صِرْفاً حتى مات. ولذلك يُعَدّ أحد الثلاثة الجاهليين الذين ماتوا بشرب الخمر صرفاً، وهم: زهير بن جناب، وعمرو بن كلثوم، وأبو براء عامر ابن مالك العامري.

وقد جمع شعر زهير قديماً في كتاب «أشعار كلب بن وبرة»، ونقل عنه الآمديّ بعض النصوص، ولكنه لم يصل، ثم جمعه محمد شفيق البيطار في «ديوان بني كلب»، وأفرد له ديواناً خاصاً طبعته دار صادر بلبنان، وفيه ١٤٦ بيتاً في ٣٤ قطعة ما بين قصيدة ومقطّعة ونُتَفَة.

وراء معظم شعره سببان رئيسيان: أولهما الحرب، فكثر فيه الفخر والحماسة والهجاء، وثانيهما طول عمره، فجاءت الحكمة والاعتبار والملل من طول الحياة والوصيّة لأبنائه، ثم العتاب والرثاء والوصف والغزل.

ولأن زهيراً شاعرٌ فارسٌ يُلاحظ في شعره تدفق المعاني وندرة التعقيد وكثرة المقطعات وسهولة الألفاظ.

ويلفت النظر قصيدة قافية له في ثلاثة وعشرين بيتاً، نضجت فيها عناصر القصيدة التقليدية بمقدماتها، وقد تأثر بها ذو الرّمّة، وزناً ومعنى حتى عاب عليه العلماء ذلك وعدّوا فعلَه من فاضح السرقة الشعرية. والأهم من ذلك أن هذه القصيدة وأشباهها تؤكد أن الشعر الجاهلي بتقاليده أقدم زمناً مما رآه بعض العلماء.

ومَن جيّد شعره قوله في رثاء ولده عامر:

فارسٌ يكلأ الصحابة منه
بحسام يمر مرَّ الحريق
لاتراهُ لدى الوغى في مجال
يُغْفِلُ الطَّرف لا ولا في المضيقِ
من يراهُ يَخلهُ في الحرب يومًا
أنه أخْرَقٌ مُضلٌّ الطريقِ

* * *

د.شفيق بيطار: أمين المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون سابقاً، رئيس تحرير مجلة الآداب والعلوم الإنسانية جامعة دمشق،- أستاذ الأدب الجاهلي وموسيقا الشعر بجامعة دمشق




# أنا.. وليلى..

# وموسم حب جديد

محمد منذر لطفي

هو الحبُّ.. عاد اليومَ يشدو بمُهجتي
ويمضي بأحزانِ الفؤادِ العَصيّةِ
فلم أرَ غيرَ الحبِّ.. يمحو كآبتي
ولم أرَ غيرَ الحبِّ يأتي بفرحتي
سرى في جنان الخلدِ.. من عهدِ "آدمٍ"
و"حواءَ" قِدماً.. حين أسرى.. وأسرتِ
مشت نحوه.. بستانَ حبٍّ وفتنةٍ
مشى نحوها.. بستان حبٍّ وفتنةِ
وراحت تزفُّ السحرَ والحُسنَ والصّبا
فحنَّ إلى قطفِ الثمارِ.. وحَنَّتِ
ولولا الهوى ما كانتِ الأرضُ جَنّةً
ولا كانت الدنيا مواسم بهجةِ
ولي في مغانيها عروسٌ.. مُحبَّةٌ
زرعت هواها في فؤادي.. ومُقلتي







ومـا وجْـدُها.. آن العشـيَّاتِ والضُّحى

إذا مـا رَنَـتْ.. إلا كوجـدي وصَـبوتي

ومـا هـي إلا الشـعرُ والعطـرُ والسَّـنا

تـألّقُ عـن سَـبْعٍ وعشـرينَ حِجَّـةِ

أحبـكِ.. هـل قالـت لـكِ الغيـدُ إنـني

أحبكِ..؟ هـل قَلَّبْنَ في الحب صفحتي..؟

وهـل رحـن يمـلأن الجـرارَ مـن الهـوى

مساء..؟ وهـل أشعلنَ في الليل شمعتي..؟

وهـل حـدَّثتكِ الروضـةُ الحُلـمُ الـذي

رأيتُ..؟ وهـل قصَّت على البدرِ قصتي..؟

مسـاءاتُ حُبّـي.. والصـباحاتُ.. والمنـى

تُعِـلُّ فـؤادي.. نشـوةً بعـد نشـوةِ

ويـا طلعـةً حسـناءَ.. راح يلُفّهـا

نسيمُ الهوى "من حيثُ لم تـكُ ظنَّتِ"

تمنَّـت حبيبـاً شـاعراً.. وقصـيدةً

فكـان لهـا عنـد اللّقـا.. مـا تمنّـتِ







لقــد جُــنَّ حُبّــاً في هواهــا.. وشِــعرِها
وفي حُسنِها الشّادي المُحـبِّ.. وجُنَّـتِ
و"ليلـى".. كمـا شـاء الهـوى.. عامريـةٌ
ببــاليَ منهــا ألــفُ ليــلٍ.. وليلــةِ
و"ليلــى" بعينيهــا مــن الســحر جنَّــةٌ
أطــيرُ إليهــا في رُقــادي.. وصــحوتي
و"ليلـى" يغـارُ الحُسنُ منهـا.. وإنْ بَـدَتْ
تُضــوِّئُ حبّــاً ألــفَ روضٍ.. وروضــةِ
إذا أقبلَــتْ.. فــالزّهر بعــض جمالِهــا
يُعطّــرُهُ وردُ الصّــبا.. والمحبّــةِ
وإن أدبــرتْ.. فالشُّــهبُ بعــضُ رِفاقِهــا
تقرّى خطاهــا.. "نجمــةً" بعــدَ "نجمــةِ"

ويــا حُلــوةَ العيــنينِ.. إنــي صــبابةً
أذوبُ.. وفي عينيــكِ ألقــى تَعِلّــتي
فأنــت لــي البــدرُ المضــيُ.. وإنــني
أهــيم بشــمسٍ منــكِ تغتــالُ عــتمتي




أحبـكِ حـبَّ الزهـرِ للفجـرِ.. والنـدى
وحـبَّ العـذارى للنجـوم المشـعةِ
ويـا حـادي الأشـواقِ.. يـا سـاقي الهـوى
ظمئـتُ.. وإنـي قـد أمـوتُ بغُلَّـتي
ولمـا رأيـتُ الكـأسَ والـدَّنَّ.. يمَّمـا
عناقيـدكَ النَّشـوى.. "أتيـتُ بِجَرَّتـي"
ويـا أنـت.. يـا حسناءُ.. يـا أجمـلَ الـرُّؤى
ويـا موسمـاً للحُـبِّ.. ثَـرَّ المَـودَّةِ
أفيضـي علينـا مـن دواليـك خمـرةً
فأنـتِ كرومـي الحاليـاتُ.. وخمرتـي
وأنـتِ غنـائي حـين أشـدو.. ومِعـزَفي
وأنـتِ رياضـي حـين ألهـو.. وجـنَّتي
لـكِ الحـبُّ.. والشـعرُ المُوشَّـحُ بالسَّنا
لـكِ القلـبُ يـا "ليلـى" فإنّـكِ "نجمتي"




# السرداب الصغير

بقلم:
نسرين عبد الله قفة
قطر

(في صدر كل منا سرداب صغير مظلم، يقبع فيه كائن تختلط فيه ملامح الضعف بملامح القسوة والغضب، قد يبقى كامناً للأبد، وقد يخرج للحيّز بإضاءة بسيطة، وهنا تكون المواجهة الكبرى، والتحدي الفاصل).

هذا ما ختم به أستاذ التاريخ محاضرته، جمع الأستاذ المُلتحي كتبه ومراجعه في حقيبة جلدية متهالكة ثم انصرف بعد أن ألقى التحية مصحوبة بابتسامةٍ لم أفهم مغزاها آنذاك.

بقيت جالساً في مقعدي في المدرج معلقة عيناي على المكان الخالي الذي تركه الأستاذ، وفي ذهني تدور آلاف الأسئلة، وأهمها هو هل سأقضي بقية العام الدراسي دون أن، أفهم محاضرة واحدة لهذا الأستاذ؟

...

في الطابق الحادي عشر، جلست متأملاً الغيوم السوداء من شرفة مكتبي الفاره، مضت تسعة أعوام على تخرجي، وها أنا ذا أعمل لدى شركة مرموقة، تملك أكبر اسم في المنطقة، قد لا يكون توريد الأغذية مرتبطاً بطبيعة دراستي، ولكن على أية حال فأنا أحظى بوظيفة ذات دخل مرتفع يحسدني عليها الجميع، ولكن لو....

وبحركة متثاقلة يدير المذياع، يتنقل من محطة لأخرى، لا يبحث عن شيء بعينه، يسمع

رنين الهاتف، يمد يده للرد واليد الأخرى ما زالت تتنقل بين القنوات، تستقر يده ليستقر البث من دون قصد على نشرة أخبار التاسعة صباحاً، لم تكن القنوات الإخبارية في يوم ما من قنواته المفضلة، ولكن، هنا زلزال، وهناك بركان، حرب أهلية في بلد افريقي، وحرب انتخابية في بلد أوروبي، أمن واستقرار في البلاد العربية.

يُنهي مكالمته الهاتفية، يصم أذنيه كلتا يديه بحركة تلقائية، يجوب الحجرة الفارهة باتجاه مكتبة أنيقة مصنوعة من الخشب المزخرف في زاوية الحجرة، وما زالت يداه مستقرتين على أذنيه، ينظر إلى الكتب ذات التجليد الفاخر وابتسامة تعلو شفتيه، ينتقل بنظره من عنوان لآخر، "لم يكن لديّ الوقت الكافي لقراءة هذه الكتب، ولكن على الأقل هي موجودة ومتاحة في أي وقت، والوقت مازال فيه متسع"، وما زالت يداه مستقرتين على أذنيه.

يخطو خُطى متمهلة بطول وعرض الحجرة متأملاً بزهو حذاءه الأسود اللامع، والأزرة الذهبية لبزته السوداء، يبتسم، "هكذا يريدوننا.. متأنقين"، يخطو نحو المذياع، يجر السلك الموصل للكهرباء من مصدره، يلقيه أرضاً، يضع يده في جيبه ليخرج منديلاً أبيض اللون مشغولاً بورود حمراء تحتضنها أوراق خضراء، يجلس على كرسي مكتبه الفاره، ينحني ليلمع بمنديله حذاءه الجلدي الذي علاه بعض الغبار، وابتسامة لا تفارق شفتيه.

ينهض خارجاً من مكتبه بحثاً عن بعض التسلية، فلا بد من ملء وقت الفراغ بشيء مفيد، يضع يده في جيبه، "آه لو أستطيع التخلص منها"، يتمشى في الممرات المؤدية للمكاتب، ممرات نظيفة، مفروشة بسجاد أحمر اللون ذي إطار أخضر، من هذا المكتب تصدر موسيقى حالمة،أخذ يتهادى على أنغامها،يضع يده في جيبه، تتعثر قدماه، "آه لو أستطيع". وهذا مكتب آخر تفوح منه رائحة مميزة، لا بد أنه عطر فاخر باهظ الثمن، "كم أنا محظوظ لأعمل في هذه الشركة، شركة بهذا الرقي من الطبيعي أن تكون المسيطرة على المنطقة"، ينظر إلى ساعة يده، إنه موعد الاستراحة لتناول وجبة خفيفة، يضع يده في جيبه، "لا.. لا .. لا يمكن".

يدخل المطعم المخصص للموظفين، "يا للنظافة، ما أروع ترتيب القاعة"، طاولات دائرية بأغطية حمراء مزركشة، "ما أشهى المأكولات التي تزخر بها المائدة، نختار ما نريد!"، وجبات خفيفة مزينة بقطع من الطماطم والخيار، مشروبات خفيفة بألوان جذابة متنوعة، يضع يده في جيبه، يتحسّسُ شيئاً ما، "يجب أن.. لا.. مستحيل.. لمَ هذه الأفكار!".

يجلس على إحدى الطاولات الدائرية.. يتناول ما تشتهيه عينه قبل معدته، تزدحم الأفكار، تتهافت، "لِمَ تنتابني هذه الهواجس؟" هواجس مقلقة، أفكار مخيفة، مرعبة، لا سبب معروف لهذه الحالة، هناك ما يدفعه لعمل شيء ما، ولكن ما من سبب واضح.

يشعر بانتفاخ في معدته، وكسل في جسده، "كيف يريدوننا أن نعمل ونُنجز وهم يقدمون لنا هذه الوجبات الدسمة؟" ينهض مبتسماً، واضعاً يده في جيبه، يسترعي انتباهه باب خلفي، يبدو أنه طريق مختصر للوصول إلى الممرات المؤدية للمكاتب في الطوابق العلوية، يقرر أن يسلك ذلك الطريق، يفتح الباب، بالرغم من وجود عبارة ممنوع الدخول.

...

يا لها من ممرات واسعة تحت الأرض، قد يكون هناك مصعد يؤدي إلى الأدوار العلوية، يتقدم، تفوح رائحة زكية، إنها ذات الرائحة التي استمتع بها في الطابق العلوي ذي السجاد المنقوش بلونيه الأحمر والأخضر، يسير في ممرات بدت له لوهلة وكأنها دهاليز بدأت تضيق وتضيق، وكلما حثّ السير ضاقت أكثر، بدأت أنفاسه تضيق، تتقطع، يضع يده في جيبه يتحسس شيئاً ما، أخذت يده الأخرى تبحث عن المنديل الأبيض في الناحية الأخرى ليجفف عرقه، أصبح السير في هذه الدهاليز أمراً شاقاً، وأصبح يمشي بصعوبة نتيجة لضيقها.

نظر إلى الأمام، لم يصل نظره إلى نهاية الممر، قرر العودة، ولكن.. لا عودة الآن، ينظر خلفه، لا ممرات ولا دهاليز، فقط حائط يسد طريق العودة، وكلما تقدم للأمام أكثر اقترب الحائط خلفه، المضي في السير أصبح هو الخيار الوحيد.

بدأت تتحول الرائحة الزكية إلى رائحة نتنة تخترق فتحتي أنفه، يمسك بمنديله الأبيض، يغطي به أنفه، ينظر إلى الأمام، إنه مجهد، متعب، ولكن.. يضع يده في جيبه ليتحسس شيئاً ما، ضوء ساطع يخترق نهاية طريقه، يبتسم، يخرج يده من جيبه، حان الآن وقت التخلص من هذه المعاناة، يجفف عرقه بمنديله، يضعه في جيبه، يصل عند نهاية الممر حيث الضوء الساطع، يقف، يضع يده في جيبه، ولكن.. لا... يخرج يده، يدخل القاعة.

أناس كثيرون متأنقون، ببزات سوداء ذات أزرة ذهبية، أحذية جلدية لامعة لا غبار عليها، يبتسمون، ينظرون إليه، كأنهم كانوا ينتظرونه، يجتمعون حوله، يمسكون بكلتا يديه، يسيرون به حيث قاعة كبيرة خافتة الإضاءة، تفوح منها رائحة نتنة، وموسيقى صاخبة ساقطة، تتهادى على أنغامها كلمات حقيرة بذيئة.

أرقص.. تمايل على نغمات موسيقانا كما كنت تتمايل عليها في الطابق الحادي عشر، استنشق عبير رائحتنا كما كنت تفعل في الطابق العلوي، هيا استمتع.

يخرج أحدهم من جيبه جيفة حيوان صغير نتن الرائحة.

– استمتع، تذوق، إنه طبق مميز، لا يختلف عما التهمته قبل قليل.

"لا.. لا.. مستحيل". يفيق من غيبوبة، نعم غيبوبة كانت، ليرى الرجال المتأنقين يرتدون معاطف بيضاء، مخضبة بدماء، في عيونهم بريق ساطع، وعلى شفاههم ابتسامة، ورائحة نتنة. يغمض عينيه، يعود بالذاكرة، جثث في كل مكان، أشلاء أطفال، حطام منازل، غيوم سوداء، رجال بعيون ساطعة، ومعاطف مخضبة بدماء، يسيرون ببحار من الدماء، وأوراق أشجار مبعثرة هنا وهناك، كلمات بذيئة، ورائحة نتنة، تتشابك المشاهد والأصوات، موسيقى ساقطة، صراخ وعويل، ونشرة أخبار التاسعة صباحاً.

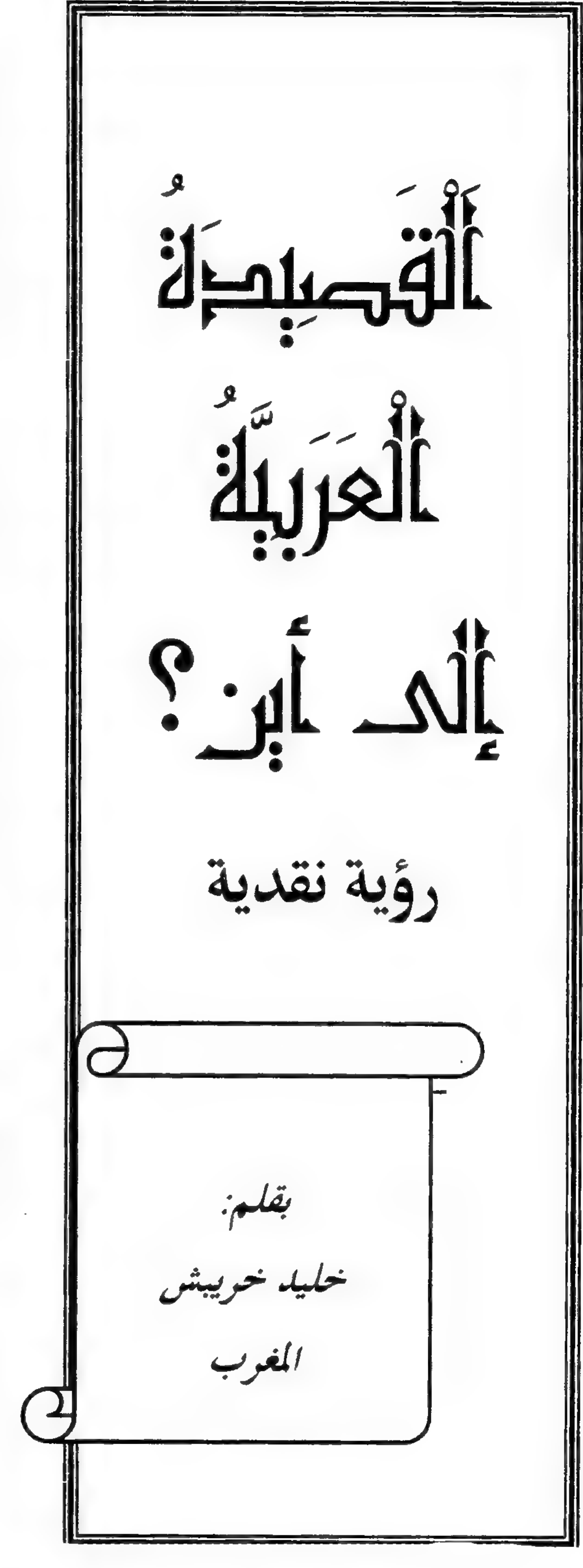
يضع يده في جيبه، يتحسس شيئاً ما، ولكن... لا بزة أنيقة، لا حذاء لامع، لا شيء سوى منديل أبيض كبير مشغول ومطرز بورود حمراء لون الدم محاطة بأوراق شجر خضراء، منديل كبير يلفه، يستر جسده العاري.

يغمض عينيه، يأخذ نفساً عميقاً، تختلط زفرات أنفاسه بهمهمات الرجال، يحيطون به، يمسكونه، يسقونه كأساً من شراب نتن، يطعمونه جيفاً وأشلاء أطفال، يطعنون قلبه، تسيل دماؤه على الأرض مكونة سجاداً أحمر اللون فاخر المنظر، يرفع رأسه إلى الأعلى، يعود بالذاكرة، يضع يده على المنديل، يتحسس شيئاً ما، يبتسم، "الآن فقط فهمت، مازال في الوقت متسع، الآن، ولا وقت غير الآن"، يفتح السرداب.

...

بعد عدة ساعات، كان هناك كهل ملتح، يجلس في حديقة بيته، يجمع الورود الحمراء، ويقلم الحشائش الخضراء، وعلى منضدة في الزاوية، تقبع كتب قديمة وحقيبة جلدية لا يمكن التعرف على لونها، ومذياع قديم، وأنباء عن انفجار أكبر شركة تمويل أغذية في المنطقة. لم يعرف سبب الانفجار حتى الآن.

...




هذه رؤية للإبداع الشعري العربي المعاصر، أحاول أن أتطرق فيها لبعض الإشكالات التي كانت محط خلاف بين المتتبعين والمهتمين بالشأن الأدبي العربي وليس القصد منها إذكاء أو إثارة نقاش جديد أو اجترار ما خاض فيها السابقون بل الأمر يتعلق بقراءة جديدة لأن الوعي يقتضي قراءة متجددة للتراث تتجدد كل حين مع تغير الظروف والأحوال، ومع توالي الأجيال. لا يمكن أن نصفي الحساب مع الماضي هكذا ونستكين إلى الراحة ونكتفي بما قام به سابقونا، إنها أمانة على عاتقنا، إن المتتبع للإنتاج الأدبي العربي منذ ما يسمى بالنهضة العربية الي كانت نواتها في مصر العربية يلحظ صراعا حادا بين القديم والجديد خاصة عقب دخول المستعمر، ما يهمنا في هذه المقالة هي الأشكال التعبيرية وأخص بالذكر الشعر، وبالضبط النقاش الذي دار حول شاعرية الأشكال الأدبية التي لا تخضع لأوزان الشعر العربي، والذي وصل أحيانا إلى درجة ما يسمى بخطاب الصم أو بتعبير آخر إلى النفق المسدود.

سأتعرض لمجموعة منها فمحاولة الإجابة عنها ستؤدي إلى فك خيوط بعض الإشكالات.

هل الشعر الحر أي شعر التفعيلة شعر؟ وهل هو من الشعر العربي؟

هل مايسمى بقصيدة النثر أعني التي لاتلتزم إطلاقا بالتفاعيل الخليلية شعر؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هي شعر عربي؟

هل الخاطرة شعر؟ وهل يمكن اعتبار الخاطرة شعرا عربيا؟

هل الزجل شعر؟بما أن الزجل يكتب باللغة الدارجة لا العربية، لا يمكننا أن نقول هل الزجل شعر عربي فالتساؤل غير ممكن؟

إذا فالملاحظ من خلال هذه الأسئلة أني أفرق بين ما هو شعر وما هو شعر عربي.

أقول عربي لأن الشعر العربي له صفات مخصوصة فهو الكلام البليغ المبني على الإستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة، مادون ذلك فهو ليس شعرا عربيا، صَحيحٌ أنه في أي منطقة يُنشَدُ الشعر بميزات تَخص جغرافية هذه المنطقة، ولَكِنَّهُ هذه المنطقة، وتقاليد هذه المنطقة، وثقافتها إلى غير ذلك... فبيئة القاطن في مدينة إفْرَانَ مثلا ليست هي بيئة القاطن في الصحراء، ولك الحق في التغني بمحبوبتك بإيقاع منطقتك حيثما كنت، تغنى عنترة وهو يرعى في الصحراء، ويحق له ذلك. كما يحق للأمازيغي في الأطلس المتوسط أن يتغنى بإيقاع منطقته ولغته وكل شاعر، هذه مسألة لا خلاف فيها. لكنّ هذا الشعر وإن كان بلسان عربي فمادام لا يحترم معهود العرب في الشعر فهو ليس شعرا عربيا.

سيقول قائل لماذا كلمة شاعر عربي أو شعر عربي تختص بما نسميه عادة بالشعر العمودي مادامت الأنواع الثلاثة الأخرى تؤدي نفس الوظيفة؟هنا مربط الفرس، لا يمكن للشعر الحر أن يحفظ موروث العرب، لا يمكن للشعر الحر أن يحفظ لسان العرب وتاريخهم، وإن استجاب بانزياحه لرياح الحداثة وتشظي الذات العربية الإسلامية تبقى وظيفته محدودة، لايمكن للشعر الحر أن يستوعب علوم العرب من فقه ولغة، لا يمكن للشعر الحر أن يؤدي وظيفة بحر واحد من بحور الشعر العربي ألا وهو الرجز، ونعلم مكانته العلمية. فالعربي في زمن الجاهلية لم يكن يعرف الكتابة إنما كان كل شيء عنده شفهيا، كان يميز بين الطويل والكامل والبسيط هكذا تلقائيا وأذكر هنا قدوم وفد بني تميم وقيام الزبْرقانُ بن بدر التميمي يفخر بقومه وكان حسّانُ غائبا فأجابه بقصيدة على الطويل و أنشد الزِّبْرِقَانُ على البسيط، فلما انتهى حسان قام شاعر القوم فقال ما عَرَضْت في قوله وقلت على نحو ما قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت"قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال"فقام حسان فأنشد على البسيط... إذًا فالشعر العربي مخصوص بأشياء لا توجد في أشعار الأمم الأخرى ولذلك خص الله هذا اللسان بحفظ الرسالة الربانية.

لحد الآن أحاول أن أتجرد حتى يكون الكلام خاضعا للمنطق كيفما كانت ديانة المرء وتوجهه ولغته، لأن التجرد فيه إقناع لمن يحاول أن يتكلم كأنه ليس عربيا وليس مسلما وغير معني بحفظ اللسان العربي والدفاع عن الرسالة الربانية، وسآتي لأوضح علاقة القصيدة العربية الأصيلة بالدين الإسلامي ففي ذلك ستتضح الأمور أكثر.

أقول إن الأسلاف رضي الله عنهم كانوا أشد حرصا على تعلم اللسان العربي والشعر العربي وما زالت هذه الرسالة إلى الآن وستبقى مستمرة، لإيمانهم أن الفلاح في الدنيا والآخرة في اللسان العربي المبين لسان آخر الأنبياء والمرسلين، إيمانا يقينيا قطعيا عربا كانوا أم أمازيغا أم فرسًا أمْ رُومًا، ونعلم أن مقدمة الحَبْر ابن آجُرُّوم الصِّنْهاجي التي تدرَّسُ في جميع المعاهد الإسلامية للمبتدئين في النحو والتي نظمها ابن آبَّةَ التوْاتي وشرف الدين يحيى العمريطي على الرجز، وألفية ابن مالك هذه الأرجوزة التي هي منتهى الطلب في علم النحو لصاحبها ابن مالك الأندلسي نظمت على الرجز. أمَا وأَنْ تضعف شوكة الإسلام والمسلمين وتداعى الأكلة على قصعتها ويصبح اللسان العربي منبوذا من طرف الشباب يتخذونه سخريا فهذا أمر آخر. إن ثمرة علم العروض هي حفظ اللسان العربي لأنه ميزان الشعر والشعر العربي ديوان العرب فيه كل ما

تعلق ويتعلق بهم، وفي حفظ اللسان العربي حفظ الدين والشريعة وازدهار الأمة ونمو لغتها وتطبيق مراد الله في أرضه ألا وهو حاكميته، هذا هو السبب الرئيس الذي يجعل الشعر الفصيح الملتزم بالقواعد أعلى طبقة.

فلا نقول كل يدَّعي وصلا بليلى، ولا نقول هؤلاء متشاعرون ولكن نقول الناوون بشعرهم طاعة الله تعالى والقيم الإنسانية السامية.

لقد حبا الله الشعر العربي بصفات وميزات لايعيها من هب ودب، لا يعيها إلا من امتلك الملكة اللغوية واكتسب الدُّرْبَة وحفظ عددا كبيرا من القصائد العربية وأدرك جزالة ألفاظها وتناغم أصواتها وتردد مقاطعها ودوران أوتادها وأسبابها.. إن صفاء السريرة والفطرة السليمة والقلب الصافي من الشوائب تكون حاصلة في أهل النظم العالي الطبقة، وبالتالي فهم جمعوا بين الجمالية والسليقة العذراء والمعرفة الخالصة وخصال سنامها الجود والكرم والوفاء.

إن الشاعر العربي وصل إلى درجة أنه يستطيع أن يأتي بالمحفوظة الخالدة التي لا يستطيع أحد أن يطمس معالمها من نفوس متلقيها، إن الذائقة الأدبية حاصلة لديه وعلى درجة من الرقي كما هي حاصلة عند المتلقي أيضا فقدرة المتلقي الذي كان في الغالب يتلقى شفهيا على إدراك التعابير التي إن قيلت خلدت، لدى كان يُتجنبُ غضبُ الشعراء فيُوَقَّرُونَ وَيُكرَّمُون، وتلك سلطة الشعراء في الجاهلية و في العصور الأولى للحضارة الإسلامية التي كان الدين الإسلامي صُلْبَ بنيانها وعلة وجودها. إن بنية الكلام العربي الأصيل يطبعها السجع وترصيع الكلمات والإقتضاب كما هو الشأن في كلام الله النازل بلغة العرب وفي الحديث النبوي الشريف وليس ذلك تكلفا، كلا، بل تلك غاية في التمام والكمال في البلاغة، ويبدو ذلك في أمثال العرب وحِكَمِهِمْ ومنها ما هو موزون ويظن المعاصرون ممَّنْ لا يمتلك الملكة أن المرء يتكلف حينما يَتكلم عربية فصيحة منسوجة وفقا لكلام الأوائل. وقد انتبه إلى هذا الأمر عبد الرحمن ابن خلدون حينما لا حظ أن العربية الأولى قد بدأت تُفْقَد فتكلم في هذا الموضوع بما يُوَضِّحُ الفكرة بجلاء. نقول إن العربية بطبيعتها وبطبيعة ألفاظها وأصواتها متناغمة منسجمة تسعف الإنسان البليغ وتعلي مَن امْتَلَكَ شاعرية وموسيقى شعرية يشنف بها أسماع المحبين ويشفي غليل المحاربين ويرد على الهجائين.

ولعل نازك الملائكة وبدر شاكر السياب كانا على درجة من الفطنة، لقد كسرا التناظر في التفعيلات لكنهما حافظا على تردُّد بين الفينة والأخرى في القافية وترَدُّد لازمة كي يجعلا المتلقي يتقبل جديدهما. وحافظا على محسنات تجعلك لا تنفر من شعرهم بل ترردده وتحفظه كأنه شعر عمودي، ورغم ذلك فلا تكاد تجد متلقيا يردد أو يحفظ قصيدة لأحدهما عن ظهر قلب. وتجد قصائد لكتاب في شعر التفعيلة تفتقد التناغم والإنسجام الصوتي وعدم تكرار القافية وطغيان إنزياح غير معهود عند العرب أشبه ما يكون بقصائد لشعر إنجليزي أو فرنسي مترجم. أما قصيدة النثر فقد أفضت إلى نوع من فساد في الذائقة العربية

وجُل من يمتطي قصيدة النثر ليس على إلمام بالأدب العربي وبالثقافة الإسلامية، إنما أخذ جزءا تعليميا يسيرا في العربية أهَّلَهُ كي يكتب شعرا ظرفيا يغلب عليه المعرفي أكثر من الجمالي، وأما الزجل فارتبط بانحسار المعارف والشح المعرفي وشيوع لسان العامة واقتصار جل الورى على الكلام المختصر ففي الأندلس كان الصبية يحفظون القرآن ثم الفقه والأدب لدى كانت الحركة الأدبية نشيطة في ذلك الحين، على عكس المغرب كانوا يقتصرون على حفظ القرآن فقط لدى ازدهر الزجل وكان

شائعا ومنتشرا أكثر من غيره من الأشكال الأدبية وقد تناول ابن خلدون هذا الأمر بما فيه الكفاية.

هذه محاولة لرصد واقع أو حال الخطاب الشعري المعاصر وَصيَغه المختلفة من الأكثر كلاسيكية إلى الأكثر انفتاحا وتساهلا، وبطبيعة الحال سواء كنا راضين عنه أم لا فلا بد لنا من تفسير هذا الواقع وتفكيكه وفهم العوامل المتنافرة فيه وإلا فلا إشكال في هذا الخطاب ولا حركية فيه، إن الحركية نتيجة صراع بين جديد يحاول أن ينتزع الإعتراف ويجد مكانه ضمن الأشكال المعهودة وقديم يريد أن يلبي التغيرات المتسارعة كي يضمن حاجيات الذات المبدعة، وبين الأشكال نفسها محاولة الواحد منها اجتياح الأشكال الأخرى والحط من شأنها ولَمَ لا تجاوزها. . إذن فالأمر يتطلب عودة للوراء كي نعرف مصدر الصراع وهل هو صراع جديد أم قديم، وإذا كان قديما ماهي أوجه التشابه بينه وبين صراع اليوم. نعود للوراء كي نفك خيوط الحاضر فتنجلي حجب عن أعيننا ويظهر جوهر الصراع، كل هذا من أجل استشراف مستقبل هذا الشعر العربي المتجسد في القصيدة العربية التي تعتبر أسمى أشكال التعبير عند العرب.

فلنتخذ زمن أبي الطيب المتنبي منطلقا للبرهنة على أن الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي ليس بجديد، كان ابن جني يحب شعر المتنبي وينشده وينتصر له ويعترف بموهبته الكبيرة في الشعر ونعرف مكانة ابن جني العلمية فهو أحد أئمة اللغة العربية من دون منازع، وكان المتنبي يدرك هذا الأمر حتى قال:ابن جني أعلم بشعري مني، أي أنه يمارس النقد بالتعبير المعاصر في حركة أدبية وازدهار ثقافي صاحب انقسام الدولة العباسية ووصول الدولة إلى المدنية والترف الذي هو من توابع الحضارة بتعبير ابن خلدون. . إذن، ابن جني الناقد كان يحاول أن يتبث قدم المتنبي بإبراز قيمة شعره مستندا إلى مكانته العلمية التي لا يمكن الطعن فيها من طرف الخصوم، ودليل كلامي هذا هو أنه كان يلقي أبيات المتنبي دون ذكر اسمه حتى إذا عرف رأي السامع و تأكد من شهادة لصالحه كشف أن الأبيات للمتنبي، السؤال الذي يطفح الآن - هل خرج المتنبي عن القصيدة العربية التقليدية؟كلا، لكنه جعلها تسعفه كي يعبر عن ذاته وآلامه وهمومه وهموم عصره، الأمر الذي لايستطيعه دون الخروج عن سابقيه، إن كثرة خصوم المتنبي ليس سببها الحْظوة التي كان ينالها من طرف الأمراء أو شخصيته الأنانية كما توصل إليه بعض نقادنا ممن طبقوا مناهج تعتمد التحليل النفسي حرفيا على شخصيات أدبية، الأمر ليس كذلك، إن أنانية المتنبي أو تضخم أناه أو نرجسيته جزء من دفاعه عن نفسه، جزء من رد اعتبار لذاته، جزء من تحديه وفرض جديده، إن شخصية المتنبي حملت التغيير الذي لم يستسغه علماء الإسلام والأدباء والمثقفين بالتعبير المعاصر في تلك الآونة، إن الجديد الجاد المنبثق من الأصالة يفرض نفسه من دون شك وهذا ديدن المتنبي إذ طاف في البادية في صغره بحثا عن البيئة العربية الصحراوية، بحثا عن الصفاء، بحثا عن الأصالة، عن اللسان العربي الذي لم تصله رياح المدنية

العباسية والتي قد تفسد سليقته وقريحته.

قال ابن خلدون ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك الذوق، وكأننا أمام صراع اليوم. أنكر العديد شعر نازك الملائكة والسياب، وينكر العديد منا قصيدة النثر الآن. هل التاريخ يعيد نفسه؟، إن الزمن العباسي ليس هذا الزمن،

كانت اللغة العربية لغة الدولة والسياسة والإقتصاد والثقافة... ولا حاجة للعربي لتعلم لغات أخرى إلا من كان له هدف البحث العلمي. وكانت اللغة العربية اللغة السائدة في العالم وتسعى كل الأجناس إلى تعلمها ويتسابق الناس إلى الانتساب إليها، عكس يومنا هذا حيث هناك من يتنكر للغته بدعوى عدم جدواها وعدم حاجته لها، أو أن العالم قرية واحدة تكتب بما تشاء وتتعلم ما تشاء. وخلاصة القول أن الهوية العربية والشخصية العربية كانت قوية، تعرف حركية داخلية دون مؤثرات خارجية كما هو الحال اليوم.

لم يخرج المتنبي عن الأوزان الخليلية لكنه تمرد عن تراتبية البكاء عن الأطلال وذكر الناقة والفرس والبطولة وتنويع الاغراض داخل القصيدة الواحدة، لأن الواقع يحتاج إلى التغيير. لقد استغل المتنبي موهبته وذكاءه وإلمامه بالشعر القديم وتجواله الذي سمح له بمعرفة حال عصره أن يملأ الدنيا ويشغل الناس بتعبير ابن رشيق القيرواني. إن مقاومة علماء الإسلام لمحاولات تكسير البنية التقليدية للقصيدة العربية شيء طبيعي لأنها مرتبطة بمصادر التشريع ومن البيئة العربية التي نشأ فيها محمد صلى الله وعليه وسلم وأصحابه وتابعيه وبالتالي ففهم الدين الصحيح ونشره يرتبط ارتباطا قويا بالإلمام بالشعر العربي الجاهلي والبيئة الصحراوية والقبائل العربية وحبها وأولى لنا أولى أن نمتلك الملكة اللغوية الأصيلة ففيها فلاحنا لأننا سنفهم الفهم الجيد للدين فنمرره للأجيال الأخرى بأمانة، وهذا الأمر لا يخفى على علماء الإسلام، لقد أسسوا علوما وقواعد ومنظومات تجعل اللغة العربية الصحيحة تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. نضيف كذلك أن علماء الإسلام أكثر تحفظا في بعض أغراض الشعر كالغزل والهجاء خوفا من السقوط في معصاة الله تعالى

ويبدو هذا الأمر بوضوح في القرن الهجري الأول حيث كان الناس أكثر تشتبتا بالدين فالرسول صلى الله عليه وسلم قال: خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...

ونذكر هنا معاناة مجنون ليلى لأن الناس أنكروا عليه أمر تشبيبه بليلى. والعلماء يحفظون أشعارا في هذه الاغراض ومنهم من قال الغزل في شبابه أو قبل التزامه بتعاليم الدين الإسلامي وحسان ابن ثابث أنشد في ذكر الخمر والحبيبة في همزيته يوم فتح مكة، وفي موطن آخر قال الرسول صلى الله عليه وسلم. قل ومعك روح القدس في هجاء كفار قريش.

قال حسان بن ثابث:

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ
خَلَالَ مُرُجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا
وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

وليس كما يزعم البعض من وجوب إبعاد كلما علاقة له بالدين من الأدب وكأن الأدب الغربي لَمْ يُبْنَ على دين، بل الفكر الغربي عَيْنُهُ بُنِيَ على مناقضة الدين ولولا الدين لما وُجِدَ هذا الفكر أصلا، أمَّا أَنْ نتبنى طرحا هكذا رَغم مخالفته كياننا بدعوى أنا متخلفون فهذا أمر آخر. إن الدين الذي بُنِيَتْ على مناقضته الحضارة الغربية دينٌ مزيف وضعته طبقة كانت تريد المحافظة على مصالحها وسيادتها على العالم، ليس الشأن كما هو الحال في الحضارة الإسلامية، لا غنى للأدب عن أنوار الإيمان والصفاء، لا غنى للأدب عن الرحمة المنزلة للمخلوقين، وإن حاول البعض في الوطن العربي استنساخ النماذج الغربية واحتكار كلمة أدب وَلَمْزَ الراسخين في الأدب العربي بالرجعية فإنه ستشع الأضواء الربانية حتما ولو بعد حين، وهاهو النور يعود للأدب العربي بعد زوال الإشتراكية.

كيف ننقل صراعا طبقيا في مجتمعات مختلفة عنا جملة وتفصيلا بل مناقضة للقيم الإسلامية إلى ديارنا؟ وإن كانت رياح الحداثة تفرض علينا مجموعة من الأشياء كما قال محمد عباد الجابري : إنْ لَمْ تَأْخُذْ بِهَا أَخَذَتْكَ فالهوية التي تحافظ على تميزها كالنخلة لا تنال منها العواصف، فمجال الثابث معلوم ومجال المتغير معلوم كذلك.

أقول إن سعي علماء الإسلام عبر التاريخ الإسلامي للحفاظ على مقومات القصيدة العربية الأصيلة أمر طبيعي يجب أن نقبله ونومن به ويمكن أن نعتبره فرض كفاية حتى نترك المجال للتعددية وضرب دعوى خصوم القصيدة العربية بالإقصاء والرفض والجمود. فالدين الإسلامي يدعو إلى التقدمية والعلم والبحث والإيمان وهذا أمر يقيني قطعي لايختلف عليه إثنان.

إن من يقول مثلا : إني أعيش في القرن الواحد والعشرين وبَعيدٌ عن مكة والمدينة، فلمَ أترك قبائل قرب مسقَط رأسي وأتتبع أخبارَ قيس ومضر ووَهَوَازِنَ وما إلى ذلك، هذا كلام من ينفي النور الرباني بفمه لا بقلبه، وسمعت أحد الناشطين الأمازيغيين يتكلم هذا الكلام، هذا كلام من يتجاهل التاريخ ويقصي جزء من هويتنا وينفي النور الذي أرسله الله إلينا لينقذنا من الخسارة الدنيوية والأخروية، إنّ هَوَانَ المسلمين الآن وتخلفهم لا يعني التبري من أركان هويتنا، إن مخاطبة المسلم لأخيه المسلم بخطاب عقلي صرف لا يستحضر القلب ولعلنا نعرف مكانة هذا المفهوم وحمولته الدلالية في الفكر الإسلامي أمر غير مقبول. إننا ندرك تمام الإدراك مصدر هذا الخطاب لقد ابتدأ مع احتكاك الحضارة الإسلامية ونظيرتها اليونانية ودخول المنطق الأرسطي إلى منظومتنا الفكرية وقد تصدى إليه أهل العلم الراسخون فيه، وقيدوه وجعلوا له حدودا، لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فقد آلت الحضارة الإسلامية إلى الإنحطاط والإنكماش وعرف منحنى الحضارة الغربية ارتفاعا بشكل اضطرادي، فصار عدد من جلدتنا يتكلم معك بالعقل لا القلب وكأنه يتكلم بلغة الآخر الذي بنى منظومته التفكيرية على مناقضة الوحي المتمثل في الرسالات السماوية التي هِي دين واحد يجب على البشرية جمعاء أن تتبعَه، لكن سنة الله في الخلق دفاع بعضنا البعض إلى يوم الدين.

إذن بعدما عدنا القهقرى، إلى التاريخ الإسلامي توصلنا إلى استنتاج مفاده أن تيارا يحافظ على مقومات القصيدة العربية الأصيلة عاش ويعيش معنا وسيعيش، وهذه النتيجة ستفيدنا في فهم حاضر القصيدة العربية واستشراف مستقبلها.

أعتقد أن دخول المستعمر إلى البلاد العربية الإسلامية التي كانت تغط في نوم عميق غير مبالية بما يجري حواليها من تغيرات أو أنها كانت في موقف الاحتراز لأنها تعلم أن دخول المسيحيين آت لا محال حَدَثٌ تاريخي مهم أدى إلى تغير جذري في حياة الأمة و شعورها وتماسكها وهويتها، لقد انقلبت كل المفاهيم رأسا عن عقب. فسارع المثقفون إلى إيقاظ الهمم وشحذها وافترقوا بين الرجوع إلى تعاليم الدين الأصلي و الاستغناء عن موروثهم الثقافي ومحاولة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة. فهذا هو الوجه الخفي للأشكال التعبيرية التي عقبت الإستعمار من شعر وقصة ورواية وفن وتشكيل... إنها محاولة للعودة للوجود بعد غياب، ومحاولة لفرض الذات بعد إنكسار، وفقدان ثقة وشك في مقوماتها الحضارية.. إنها النهضة العربية التي ابتدأها دعاة الإصلاح الأوائل الذين رأوا أنه لا غنى عن الدين للتخلص من براثن المستعمر وإعادة لمِّ الشمل ولِمَ لا استرجاع المجد. بناء على ما سبق كان موضوع الشعر خلال هذه الفترة وما

بعدها يصب في تذكير المسلمين بمجدهم وزرع الأمل في نفوسهم وبالفعل استطاع الرواد الأوائل إحياء التراث واستغلال معطيات التقدم التقني للحضارة الغربية لصالحهم، لقد خاضوا معارك مصيرية من أجل إعادة بناء هوية متهدمة.

إن مفاهيم مثل الإحياء والمجد و الحداثة والتغيير والهوية والأنا والآخر... ترددت ومازالت تتردد في الخطاب الأدبي بشكل عام منذ حوال قرنين من الزمن ورغم خروج المستعمر مازالت الذات العربية لم تجد طمأنينتها وأمانها في عالم لم تفهم فيه التغيرات المتسارعة حولها، فالعالم من ثورة إلى أخرى.

إن هذا الوضع الذي يطبعه التشرذم وعدم الإنسجام يترجم حال الإبداع الشعري العربي المعاصر وما يطبعه من هلامية وضبابية وتكثيف... ولعل محاولات تكسير البنية التقليدية يفسر الإختناق الذي عرفته الذات المبدعة حيث التجأت إلى أقصى حدود الانزياح من أجل مواساة الذات وتعويضها عن أحلام منكسرة وشعورها بالضياع والدونية. فالشعراء نظروا إلى أبناء وطنهم البؤساء فلم تسعفهم الخيل والنوق ولا الفخر والحماسة بل نفعتهم فضاءات الإنزياح الشاسعة للفرار في المكان والزمن. لقد نفعتهم المنظومات الغربية الدخيلة كخلاص للشاعر ولوطنه وأمته من الذل، لقد نفعهم الموروث الديني فوظفوه كمخلص أحيانا وكعامل سلبي أحيانا أخرى لدى بعض الشعراء الذي ذهبوا إلى حدود بعيدة من اليأس وَزِدْ على ذلك شغف عدد منهم وإقباله على الفكر الإشتراكي الذي ارتأوا فيه مُخلصًا وملاذا من الأوضاع المزرية التي تعيشها أوطانهم. ونذكر هنا أن محمود درويش انخرط في شبابه في الحزب الشيوعي الإسرائيلي وَالفطنُ سيرى بوضوح تأثير ذلك في شعره.

أعتقد أن الشعر التفعيلي كان أهون الضررين وأوسط الحلول في هذا الفترة العصيبة من تاريخ الإبداع الشعري العربي، لبى طموحات شباب ميال إلى المبادرة والتحدي والتغيير وحب الحياة رغم ما شاب ذلك من جنوح عن قيمنا الأخلاقية والتي ليست من شيم الشاعر العربِي الأصيل. أقول إن الشعري التفعيلي وَفق في فترة من الزمن بين تيارات متنافرة في الإبداع الشعري العربي، متح من شعر الأوائل وتفتح على الوافد الجديد وتأثر به، هذا لا يعني عدم وفائه للقصيدة العربية، بل كان الشعر التفعيلي الإبن الشرعي للقصيدة الأصيلة في هذه الفترة العصيبة، وهذا لا يعني أنه أنكر ورفض من ذهب إلى حد التمييع والتخلي عن جميع مقومات الشعر العربي كقصيدة النثر. . إذن من اليمين إلى اليسار، من القصيدة العمودية إلى قصيدة النثر، تعددت المشارب كي تستجيب لفترة إعادة بناء الذات المحطمة. السؤال الذي يفرض نفسه الآن، ما هو مستقبل الشعر العربي بشكل عام؟ وما هو مستقبل القصيدة العربية العمودية بشكل خاص؟.

إن مفهوم التجاوز لا ينطبق على الموروث الثقافي العربي الإسلامي أي أننا لا يمكن أن نحيي التراث ونعيد هويتنا ونتجاوز السابق بدعوى زوال قيمته وجعله مصدر قوة لكياننا ووجودنا فقط، إن الهوية الإسلامية تنبني على مسائل ثابتة لا تخضع لما يسمى بالتجاوز، فحدود التجاوز في التشريع سماوي معلومة فيه قيدها العلماء رغم تغير الأزمان والأمكنة لأن حكمة الله اقتضت ذلك حفاظا على التوازن في الأرض وتنبيه الإنسانية لأنها إن تركت أغرقت في المادية وكان مصيرها الخسارة الدنيوية والأخروية. وبالتالي فالنموذج الغربي والمثال الغربي والمسار التاريخي الغربي غير قابل للإستنساخ في أرضنا، بل يجب أن نتعامل معه

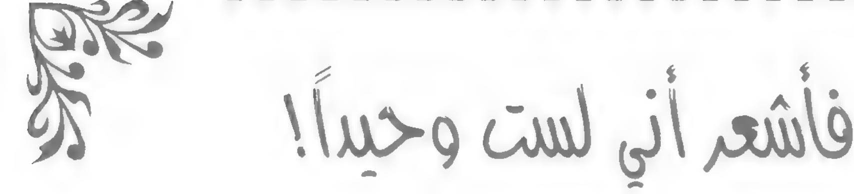
تعاملا نقديا لأننا نمتلك القدرة على ذلك نستمدها من النور الإلهي الذي نمتلكه ونعيه تمام الوعي، لكن المشكلة الحقيقية هي أن الحضارة الغربية مبنية على مناقضة الحضارة الإسلامية، إن الحضارة الغربية في جوهرها مبنية على مناقضة الوحي، مناقضة تعاليم موسى النبي وعيسى النبي ومحمد آخر الأنبياء، لقد كانت منطلقاتها هي ماديةَ اليونان ومنطق اليونان وآلهة اليونان ولعل دارس الفلسفة الغربية يلحظ بجلاء مركزية الفكر الغربي واختصاره تاريخ الفكر الإنساني في نواة أصلية وهي اليونان والنهضة الأوروبية فالتقدم العلمي الهائل المدهش الذي بلغته الإنسانية الآن. . إن دارس الفكر الغربي الفطن يلحظ بوضوح جحود الغرب لمساهمة الحضارات الأخرى من هند وصين وعرب... ونعت هذه الحضارات بالهرمسية واللاهوت والرجعية والتخلف... ولولا المسيحية لما قلنا مادية إذ الأشياء بأضدداها تعرف، ولولا المسيحيَة لما قامت قائمة للفلسفة الغربية وارتبطت المسيحية بالظلامية لأن المسيحية التي سادت أوروبا قرونا من الزمن شابها تحوير أول مرة واعتنقتها روما مُحرَفَةً حفاظا على مصالحها وهيمنتها على العالم، . إذن فالنموذج الغربى لا ينطبق على النموذج العربي الإسلامي وإن كانت مساهمتنا في الحضارة الغربية كبيرة شاءت هذه الأخيرة أم أبت، فجدلية إلهي/ وضعي عاملٌ ضروري لفهم السيرورة الحضارية عبر التاريخ.

إذا أردنا أن نستشرف مستقبل الأشكال التعبيرية في العالم العربي عامة والشعر خاصة علينا أن نستحضر المبادئ المذكورة آنفا، واستحضار تضعضع الكيان العربي منذ صدمة الإستعمار، واستحضار الوحي الإلهي كجزء من كياننا إذ المقاربة من دونه ستكون خاطئة جائرة في حق الشعر العربي.. إن تلَوُّنَ القصيدة العربية بما هو آت من الغرب وصراعات اتجاهات مختلفة فيها لكسب الشرعية ومحاولة الوصاية على الشعر العربي شَيْءٌ عَاد إذا كانت رؤيتنا متعددة الأبعاد تأخذ بعين الإعتَبار كافة العوامل التي تدخل في هذا الشأن.

أعتقد أن التأثر بالوافد من الثقافات الأخرى شيء عاد وعرفه الشعر العربي منذ نشأة الدولة الإسلامية وإن صرنا اليوم في موقع ضعف لا موقع قوة، وإن صرنا أكثر تأثرا وأقل تأثيرا. ستتماشى الأشكال المختلفة للقصيدة العربية في المستقبل فيطبعها الوئام حينا ويطبعها الخصام حينا آخر، ساعية في مجموعها لاستعادة هوية مفقودة وقيم ثابتة كما أنها ستحرص في نفس الآن على مواكبة العصر غير متقوقعة في كهف حتى لا تنفلت منها خيوط الإسهام في الإبداع الشعري العالمي.

إن من يرى أن القصيدة العريبة الأصيلة ستنقرض كما انقرضت حيوانات بفعل تغير البيئة والمناخ حسيرُ النظرة من دون شك، قد تضيق آفاقها في بعض الأحيان لكن فكرة الإنقراض تدل على أن المبدع العربي مازال لم يعرف مكانه في عالم اليوم، على الشعر العربي أن يمتاز أكثر مما سبق ويتشبث باختلافه وتميزه عن أشعار الأمم الأخرى لأننا في زمن تذويب الهويات وطمس المعالم الحضارية وعولمة الأفكار، لا بُدَّ أَنَّ كُلَّ أمة سيكون رد فعلها هو نفض الغبار عن قديمها والإعتناء به والإفتخار به وعرضه وتسويقه. . إن توهج القصيدة رهين بإشعاع حضاري إسلامي متميز ونهضة عربية إسلامية حقيقية مستمدة قوتها من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، محترمة للقيم العالمية السمحة، منفتحة على الحضارات التي تحترم الثقافات الأخرى.





# فأشعر أني لست وحيداً!

*مصطفى أحمد النجار*

لعينيـــــك بـــاح مـــا بـــاح قلـــبي..
وشـــاد الممالـــك، شـــاد الخيـــال إليـــك
مواكب حب
وأفضـــــى إلى دفـــــتر الشـــعر بـــيض
القصائد..
آكـــد بـــالنبض فـــوح الـــدوالي
وعطر الجمال
وإيقـــاع نهـــر العذوبـــة كيـــداً
ببحـــــر الملوحـــــة والاغـــــتراب!
لعينيـــــك.. يـــــا وردة المســـــتحيل
أغـــني بجـــوف الليـــالي الطويلـــة..
تحـــت فـــراغ الحيـــاة القليلـــة..








فـــوق مراكـــب شُــدَّت إليهــا ضـلوعي
وتحـــــت رفيـــــف الشـــموع
أناشيدَ فجرٍ
تململ تحـــت رمـــاد الســنين
ورؤيا غزال
ينـــاهض بالخصـــب صـــمت الحـــنين
أغنّـــي.. الطفولـــة باليـــاسمين..
بمـــا قــد تبــدّى بلفظــي.. بعمــق التشــظّي
بمـــا قــد تــألق يومــاً بطــالع حظــي
أغـــني تجـــارب أمســـي البعيـــد
تجارب صبحي..
وربـــاً تعلّـــم منهـــا .. الصـــعود
إلى مـــا تخبـــئ جبّـــة المســـتحيل!
أغـــني.. وأعلـم أنـك مـا بـين يـوم ويـوم
وهمٍّ وهمِ
وغمٍ وغم







وأعلم أنك .. مثلي..

فحولي

كمثلــــك هبّـــت ريـــاح التبعثـــر..

تُصلي وتُصلي؟

وأنـــت تصـــلّين كمـــا البلبـــل في

الذاريات يصلي!

وأعلـم أنـك مجـد القـراءة في العـالمين..

وبـــوح الأمومـــة والأبجديـــة

أخاطـــب فيـــك عـــروس المـــدائن..

فأنت محارة سري

وأنت قناديل عمري

تهدهــد شــوق البحــار بأعمــاق صــخري

وتفضــي بــوهج التأمــل نحــو بــرودة شعري

فيزداد بالبوح صدري

ويُعلـــي بخفـــق الريـــاح شـــراع التحـــدّي

فأشـــعر في الليـــل أنـــي لســـت وحيـــداً

لأزف إليك ديوان شعري!




# ليلة سقوط القط الأبيض

بقلم:
خليل الشيخة

الحديقة واسعة احتوت جميع أنواع الزهور والنباتات الخضراء الجميلة التي انتقاها مختص بالزراعة. يشرف عليها عامل لتشذيبها وسقايتها والبيت في منتصفها عبارة عن فيلا ضخمة ملبسة بالحجر والرخام. أما في الداخل فقد كثرت الغرف والأروقة حيث انتشر الأثاث الفاخر في الأركان، وأضيف إليه ديكور أنيق أشرف عليه مختص أيضا فوزع الجرار والأواني الصينية واللوحات الزيتية بعناية. اختبر القط كل قطعة في المنزل وأدركها بالشكل والرائحة. يستيقظ باكرا يتمطى، يتثاءب ثم يطلب فطوره بكل أدب من الخادمة السرلنكية بصوته الخفيض: مياو.. مياو.. تفهم عليه الخادمة فتحضر من خزانة المطبخ علبة صغيرة خاصة بالقطط – دخلت البلد عن طريق التهريب – كتب عليها باللغة الأجنبية وطبعت عليها صورة لرأس قطة سعيدة، وهي مؤلفة من وجبة واحدة. تفتح الخادمة العلبة وتفرغ محتوياتها بوعاء بلاستيكي مقعر ثم تضع وعاءً آخر من الماء بجانبه. وفي المطبخ تكون خادمة أخرى تعد الفطور لساكنى المنزل.

وعندما تستيقظ الطفلة الصغيرة، التي تشبه أمها، تهرع إلى القط فتجده مازال يتلمظ آثار الطعام وقد تمدد على بطانية ناعمة طرية، فتحمله وتضعه على كتفها، فلا يكترث كثيرا، بل ينزعج ويضطرب بين ذراعيها محاولا الفرار، فتضغط عليه كي يبقى ساكناً وهنا يشعر بثقل معدته الممتلئة فيصيح: ماو.. ماو..

ماو.. لكن الطفلة تتمشى به وتكلمه: "زورو.. زورو.. لا تتحرك.. اهدأ.. إذا لم تشبع فتحت لك علبة ثانية. لكن "رابي" يجيب بصوت حفظه: مياو.. مياو. يوضع الفطور، فيشاهد سيدة البيت ذات البشرة البيضاء الناعمة تتجه إلى الطاولة وزوجها يتبعها فيسمع صوتها الناعم الشبيه بصوته عندما يكون سعيداً: "فوفو حبيبتي.. بون جور ". يجلس الجميع إلى مائدة الفطور فتتنسم إليه الأبخرة المتطايرة من الطعام فيجر قوائمه بتكاسل تحت الطاولة ويبدأ بدعك نفسه بقدمي الطفلة مع صوت لا يكاد يسمع، يطلقه على شكل هرير من داخل حنجرته فتصيح الطفلة وهي تنقر بشوكتها على الصحن: "ماما.. مامي.. رورو يهمر تحت الطاولة ". فتصحح الأم الكلام: هذا ليس همرا.. أنه يغزل ويهرّ تعبيرا عن الفرح والسعادة.

وأتى اليوم الذي أصبح فيما بعد بداية تاريخ أسود بالنسبة للقط، اليوم الذي دخلت فيه الزوجة إلى المنزل بعد زيارة طبيبها، فبدت متعبة حزينة عصبية فابتدرت الزوج دون إسهابات:

– على رابي أن يرحل من هذا البيت.

ترك الرجل أوراق حساباته جانباً وسأل بدهشة وحيرة:

– لماذا يا حبيبتي.. هل فعل شيئاً أزعجك؟!

رمت بحقيبتها النسائية على الكنبة وخلعت حذاءها الأبيض بكعبه العالي ثم نادت بصوت مرتفع على الخادمة:

– يا بنت... أريد شيئاً بارداً – ثم نظرت إليه – لقد أخبرني دكتوري أن بشرتي بدأت تتحسس بشعر القطط. اخرج هذا القط من البيت بأسرع ما يمكن. فسأل بتعاطف وحرقة:

– ماذا عن فوفو.. هي تحب رورو كثيرا..

– كثيراً.. قليلاً.. أن وجوده يضر ببشرتي... فهمت.

في ليلة توارى القمر فيها، وضع القط في كيس وربط نهايته ثم ركب سيارته الفاخرة وانطلق في الشوارع حتى وصل البساتين. "هنا المكان المناسب.. فئران.. زواحف.. حشرات.. رورو لن يموت من الجوع هنا". آخرج الكيس ووجه فتحته إلى الأرض ودلق ما فيه، فسقط القط الأبيض النظيف خائفا مذعورا وانطلق مثل رصاصة يبحث عن ملجأ أو شجرة يختبئ من الأعداء. أما الرجل فقد رجع بسيارته إلى البيت.

بعد يومين سمعت الطفلة صوت القط وراء باب المنزل فصاحت فرحة: "ماما.. مامي.. بابي.. رورو رجع". فتحت الباب فدخل مثل رمح، فركضت وراءه وحملته متجهة إلى المطبخ ثم وضعت له علبة سردين في هذه المرة. أكل وشبع واستلقى كعادته على البطانية الناعمة ينظر إلى المرأة والرجل في حذر، وكأنما هناك مؤامرة تحاك ضده، فترك البطانية وراح يتخفى تحت الكراسي والأسرّة.

في ليلة شبيهة بليلة المأساة الأولى، بحث الرجل عن القط تحت الكراسي وفي الأواني الصينية فوجده مختبئاً تحت سرير الطفلة، فناداه: رورو.. بس.. بس.. تعال يا رورو.. ثم أمسك به من إحدى قوائمه واخذ يشدّه فسمع مواءً غاضباً وهمراً تلاه عضٌ وخرمشة وتهبيرٌ بالمخالب لليد الآثمة الممدودة، فصاح الرجل ألماً وترك القط. وما هي إلا دقائق حتى أتت الزوجة ومعها علبة سردين مفتوحة، أدخلت يدها تحت السرير فشم القط رائحة السمك، ثم بدأت تسحبها ببطء حتى وضعتها في منتصف الغرفة مما أتاح للرجل أن ينقض على القط هذه المرة ويضعه في الكيس. ومرة أخرى ركب السيارة وانطلق يجوب شوارع المدينة حتى وصل بعد نصف ساعة إلى منطقة شعبية فقيرة، توقف هناك ووجه فتحة الكيس إلى الشارع ودلق ما فيه، فسقط القط على الأرض مذعوراً خائفاً ثم انطلق مثل شظية طائشة باحثاً عن ملاذ، فوجد جداراً واطئا تسلقه برشاقة وربض في صمت هناك. أما الرجل فقد أغلق الباب وقفل راجعاً إلى منزله.

في الصباح شاهد القط بزوغ النهار ببطء، لأنه ولشدة رعبه لم تغمض له عين، فأخذت معالم المكان تتضح. في الأسفل ساحة كبيرة للأوساخ أحاط بها مجموعة من الدور المتلاصقة بلا لون أو شكل وقد انتشرت روائح قوية متعفنة لم يرتح إليها في أول الأمر، وعلى اليمين وضعت حاوية للأوساخ لا لزوم لها بسبب تكويم الأكياس والقمامة حولها عوضاً عن رميها فيها. وشاهد قطط الحي، بأشكالها الهزيلة نتيجة الجوع والحرمان وجلودها المتسخة المشوهة، تأتي باحثة عن طعام في أكياس الزبالة ثم توقف معظمهم على كومة يستعملون رؤوسهم وقوائمهم، وما إن وجد أحدهم بعض بقايا دجاجة حتى هاجمته القطط الأخرى، وبدأ صراع على الطعام عنيف حسمه قط كبير قوي رفض تقسيم الطعام مع زملائه ورفاق حارته. وبينما هو سارح في نتائج الشجار إذ قفزت بجانبه قطة حمراء وسخة هزيلة، واقتربت منه تتشممه وفعل هو الشيء ذاته من باب أدب التعارف، ولأنها أعُجبت بنظافة فرائه ورائحته العطرة ألقت عليه تحية الإعجاب والتعارف: مياووو... مياووو... فرد هو على تحيتها بأحسن منها. واستمرت الشمشمة وزيادة التعارف من كلا الجانبين حتى وجدا القط الكبير والقوي ذاته يقف مواجهاً متحدياً يهمر بغضب ويستعد للنزال، وفعل هو مثله ليس إثباتا لنظرية داروين في الصراع بين الضروب على الأنثى بل من أجل الدفاع عن النفس، وبسبب أن القط القوي الكبير أخذ مكانته الهرمية في الحي بقوة فكيّة وذراعيه، فهو سيقاتل ببسالة ووحشية من أجل الحفاظ على منصبه المكتسب، ولذلك اختصاراً للحركات والصيحات، هاجم دون سابق إنذار. فتماسكا وتعاضضا ونتف بعضهما بعضاً. ومن خلال التدافع الشديد هوى القط الأبيض مثل خرقة على الأرض وبذلك حسم النزاع لصالح قط الحي. فمشت

القطـــة وراءه غيــر لاويــة علـــى القـــط الغـــريب.

عطش وجاع، فكان عليه أن يبحث عن ما يبقيه حياً، فمشى وقفز من سطح إلى آخر حتى شم رائحة سمك قوية. ومن السطح هبط الدرج ومن الدرج دخل المطبخ وفي المطـــبخ وجــد طبق سمك مقلي، فحـــاول أن يلـــتقط واحــدة، وعوضاً عن السمكة انهالت عليه عصـــا لـــم يعرف من أين مصدرها فارتعب وزعـــق مثـــل رضيع ثم هرب بسرعة قذيفة إلى السطح الذي أتى منه. وعندما شعر بالأمان أحـــس أنـــه لا يستطيع أن يضع إحدى قوائمـــه علـــى الأرض لأن العصا الغاضبة قد كســـرتها. ســـمع مـــن الشارع مواء قطة تستغيث فرمى بنظره إلـــى المكان فوجد ثلة مـــن الأولاد يحملـــون قطـــة ويغمسونها في الماء فتشارف على الغرق ثـــم يخرجونها، فاســـتغرب هـــذا الفعـــل وأخذتـــه الظنون، هل هذا تعـــذيب لـــذنب اقترفتـــه أم تحقيق كي تعترف بجريمة مجهولة!

مضت أيام على هذا الحال وهـــو يمشـــي ويقفز على ثلاث قوائم، وباءت كل محـــاولات التصادق مع القطط الأخرى بالفشل. هم رفضوه ليس بسبب لونه بل لسلوكه المتعـــالي علـــيهم دون رصيد في هرمهم مسبقاً. وأخفق أيضاً في الاستدلال على منزل أسياده القدامى، فظل فـــي الحي وحيدا معزولا. ولم يستوعب أو يتعلم أن حياة الشوارع تتطلب كفاحاً مستميتاً من أجـــل لقمة أو عظمة أو حتى قطة أنيســـة. وبنـــاءً على هذه الاستنتاجات والعبـــر تقـــافز علـــى السطوح بحثاً عن رزقه فوجد أخيراً ضالته في قن الطيور، ولأنه يجهـــل تمامـــاً مـــا يســـمى بالملكية الخاصة مد رأسه من خـــلال الثقـــوب وأمسك بأحد الأفراخ، فصخبت الطيور وضـــج المكان، عندها أحس أن يداً بشرية تمسكه من ذيله وتتولى اليد الأخر القطع، فزعق صوتاً لم يصدره في حياته من شدة الألم واندفع هاربـــا إلى السطوح الأخرى طلباً للأمان. ولشدة الألم والذعر الفظيع لم يلحظ الدماء المتدفقـــة مـــن ذيله المقطوع. وأخذته موجة يأس، فهـــو الآن جائع وعطشان، وذراعـــه مكسورة وذيلـــه مقطوع ينزف دماً. وأتى الليل عليه مثل تلـــك الليلة التي سقط فيها من الكيس والتي قـــرّرت مصيره في بيت الأسياد. في تلك الليلـــة بـــدا صوته شاكياً حزيناً ملتاعاً كأنه بكاء طفـــل: " مياوو.. مياوو " ليس فقط لشعوره بأوجـــاع جسمه إنما لإحساسه بمصير متهالك ونهايـــة محتومة.

وفي اليوم الثالث، صعد ولد على الســـطح لشمه رائحة تعفن، فوجد قطـــاً أبـــيض ميتـــاً يتفسخ، فوضعه في كيس ورماه من الســـطح على الحاوية ليصبح مثل بقية قمامـــة الحـــي التي يجب التخلص منها. وفي المســـاء أتـــت سيارة شحن تابعة للبلدية أفرغـــت محتويـــات الحاوية وغادرت الحي.

* * *




## محرك بحث

كانت أصابعي تتحركُ بسرعةٍ غير طبيعيةٍ على لوحة المفاتيح، ثم أخذت السرعة تتباطأ شيئاً فشيئاً.

هجرت العديد من محركات البحث عبثاً وأنا أفتش عن ضالتي كان هذا المحرك هو المحرك الأخير الذي أعرفه في الإنترنت.

كتبت سريعا الكلمة ثم ضغطت موافق ظهرت النتيجة: لا توجد نتائج.

كانت الكلمة التي أبحث عنها هي " إنسان

## كيف أصبحت منجما مشهورا!

وتقول لي ابنة الجيران: البارحة تحدثت مع ريما المنجمة المعروفة وقالت لي: إن برجي لا يتوافق مع برج خطيبي، وأن هناك مشاكل في الطريق وفعلا لقد تعرضت علاقتنا للاضطراب، وأخشى ألا يكون هو الشخص المناسب لي، وأطرقت بحزن.

تفكرتُ وقلت: ريما قالت لك ذلك؟...قالت نعم على إذاعة الماضي الأبيض....قلت لها: أوما تعرفين أن ريما قد طردت من جمعية الفلك العالمية بسبب آرائها الخاطئة وعدم التزامها بالتحليل العلمي...يا صغيرتي إنّ برج العقرب خلق لبرج الدلو، أوما تعرفين أن

العقرب يحب الاختباء والدلو مناسب له جدا...أهملي كلام ريما وعودي لخطيبك...

في اليوم التالي جاءتني ابنة الجيران بكل صديقاتها.!!

## النبع

كانا متجاورين قال الأول: ليس لدي رغبة في الشرب من ذلك النبع إنه بعيدٌ جداً، والوصول إليه شاقٌ وعسير، وأنا كسول ، بينما هذا الماء بين يدي قريب. وتراءت له قطرات الماء عذبة فشرب وقال: وكأن الماء ليس بماء... إنه لا يرويني.. إنه ماء أجاج بل إنه صديد و قيح... ما هذا الذي أشرب. يا أيها النبع كم أنا عطش لكنك بعيد بعيد ، نظر إلى الماء بين يديه وقال: تبا لك أيها النبع لماذا لا تأتيني إنك سبب عطشي وبقي يشرب من الماء بين يديه ويسب النبع.

أما الثاني فقد صم أذنيه عن كلام أخيه ، وسار نحو النبع متشوقا لكن النبع كان أقرب مما يتوقع وحين اقترب، وارتشف شيئاً يسيراً منه بكى كثيرا.. لأنه تأخر في المجيء إليه.

## شهيّة

جلست وصديقي في مطعم، كنت جائعاً فالتهمت شطيرتي سريعا نظرت حولي وإذ بالناس يحدقون فيَّ مندهشين نظرت إلى الشطيرة... آه! لقد التهمت يدَ صديقي بينما كان ينظر جانباً أعجبني مذاق يده فالتهمت يده الأخرى.تلفتُّ إلى الناس الذين ما زالوا مندهشين وانفتحت شهيتي فأتيت على صديقي كاملاً ،حانت مني التفاتة إلى جسدي. آه! لقد أتى عليَّ صديقي أيضاً دون أن أشعر فلم يبقَ منا سوى لسانٍ وأسنان؟!.

## أدب أديب

كان كالممسك بيد فتى يريد إرشاده.. انظر لا تدخل هذه الأماكن.. فهذا المكان فيه.. و أمسك بيده و أدخله ليريه المكان، ثم أخذه إلى مكان آخر و أخذ يحذره من هذه الأماكن و هو يصف و يشرح ما فيها من أمور منكرة قد تودي به، و بينما هو يتحدث وقد شد أصابعه.. نظر فلم يشاهد الفتى وإذا به ممسك بيد غادة حسناء بلباس فاضح.. فقال لها: بعد أن ترك يدها بعصبية: الحقيقة أنّ هناك أناسا لا يمتلكون أنفسهم عند الاقتراب من هذه الأمكنة وما فيها من حسناوات.. فهذا الفتى لم يتحمل ولا أدري في أي ركن هو...

في الخارج كان الفتى ينتظر متأففا"... وظل ينتظر الساعات والساعات.




# جنازة منفى

طلعت سقيرق

جِنازةُ منفى سنطفئ يومَ الفراقِ
ونشعلُ يومَ اللقاءِ بألف ضياء جميل جليلْ
جِنازةُ منفى فلسطينُ عادتْ
فيا أمّ قومي لنمشي لحيفا وللقدس .. عكا
ونطرقُ بالقلب باب الخليلْ
جِنازةُ مَنفى ونبضُ الوريدِ
أشكّلُ من بحرِ يافا ضلوعي
وأمضي إلى شامةٍ
قد تبدّتْ يماما
على خدّ وعدٍ
يزيدُ اشتياقي
جِنازةُ مَنفى وعرسُ الشهيدِ
مفاتيحُ بيتي
هنا في جيوبِ الطريقِ
إلى كرملِ الروحِ
يصعدُ نحوي
وأصعدُ حتى العناقِ







جِنازةُ مَنفى وقُربُ البعيدِ
تلاقتْ يدانا
على جسرِ عشقٍ
يمدّ البلادَ إلى طالبيها
ومهرُ القصيدةِ
شمسُ التلاقي
جِنازةُ مَنفى ونبضُ النشيدِ
انهمارُ المكانِ
على راحتينِ جناحا
يرفّ يزفّ البحارَ
بخفقِ القلوبِ
لوعدِ السواقي
،،، أنا يا حبيبي تنهّدُ قلبٍ
ورعشةُ نايْ
أحبّكَ خذني أعدني قليلا
لبعضِ رؤايْ
أنا يا حبيبي أتيتكَ أشعلُ
هواكَ هوايْ ،،،،،







جِنازةُ مَنفى
لعرسكِ حيفا
أتيتُ وقلبي نشيدُ البلادْ
فهزّي سريرَ النهارِ وقولي
تلاشى البعادُ وللروحِ عادْ
جِنازةُ مَنفى
ولا شيءَ يبقى سوى ما نريدُ
معاني المنافي انتفاءُ المعاني
تزغردُ عكا يعود البعيدُ
،،،،، تمرّ فأهمسُ
ما أجملكْ
هواكَ بقلبي
لقلبي ملكْ
تفتّتُ عمري
وعمري هلكْ
أموتُ وأصرخُ
ما أعدلكْ ،،،،،







جِنازةُ مَنفى

وعمرُ المنافي الذي كان يوما

طويلٌ طويلْ

جِنازةُ مَنفى

وليلُ المنافي ثقيلٌ ثقيلْ

جِنازةُ مَنفى

وكلّ المنافي هنا تستقيلْ

هنا تستقيلْ

هنا تستقيلْ

جِنازةُ مَنفى

جِنازةُ مَنفى

فلسطينُ عادتْ

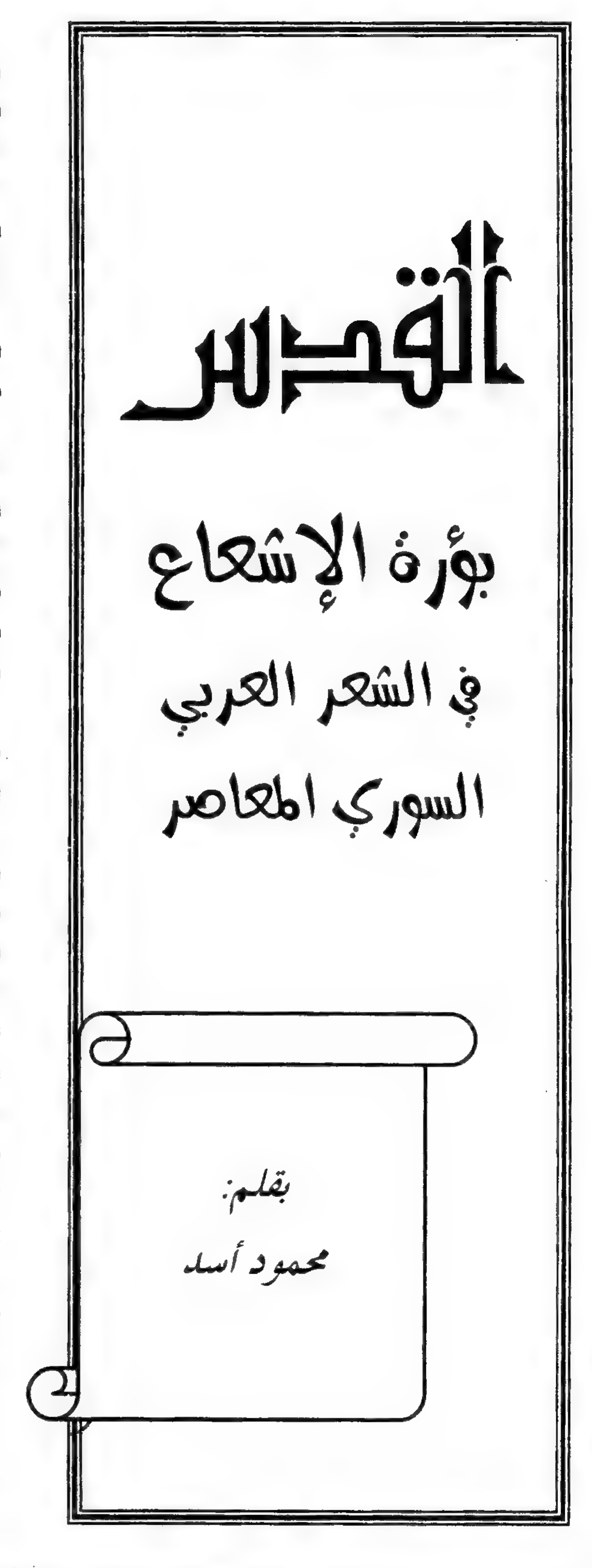
فأقبلْ وقبلْ هواكَ الجميلَ

الجليلَ الطويلَ

الطويلْ

١٤/٨/٢٠١٠




للقدس مكانة مقدسة لدى الديانات السماوية، ولها مركز البوح، وتمركز الأرواح. تحظى بالقدسية التي ما زالت تحافظ عليها لدى المسيحيين والمسلمين، وقد دافعوا عنها عبر العصور، وصانوا مقدساتها وكرامتها ووقفوا في وجه غزوات المغول والتتر والصليبيين والصهاينة الذين يعبثون بها وبمقدساتها، وفي القرون الماضية هُيّيء لها رجال مخلصون أعادوا لها وجهها وحريتها كصلاح الدين الأيوبي ونور الدين محمود زنكي.

القدس في العصر الحديث تعرضت لوحشية الصهاينة الذين يحاولون بكل أساليبهم وأدواتهم طمس هويتها العربية والإسلامية، فأحرقوا المسجد الأقصى وحفروا الأنفاق تحت المسجد الأقصى، ونكّلوا بما تبقى فيها من آثار بناها الأمويون والعباسيون والطولونيون والفاطميون والأيوبيون والعثمانيون.

ولما تزل عرضة لسوء نواياهم وتخطيطهم على مرأى من العالم والعرب... فالصهاينة راحوا يتطاولون على مقدساتها وآثارها دون رادع أخلاقي أو ديني أو قانوني، فبكاها الرجال والنساء والأطفال، واقترب من همها الشعراء العرب على مختلف انتماءاتهم وتياراتهم الأدبية، فكانت تفجعهم، فيؤلمهم سوء حالها ومآسيها، فذرفوا الدموع، وكشفوا الخطر، ودعوا إلى نصرتها، وأبانوا للعالم معاناتها من الاضطهاد والخراب، واستنجدوا بالرجال وحرضوهم للدفاع عنها، وقد خصها الشعراء بقصائد منفردة، أو ذكروها في معرض قصائد المناسبات وأطلق بعضهم عنوان دواوينهم للقدس، وهذه القصائد الكثيرة التي يصعب حصرها، وتضيق عنها ساحات الورق المعدة للكتابة، ولكنها على مختلف مدارسها الفنية وأشكالها تعكس مدى التحام الشاعر العربي الحديث مع هذه القضية المصيرية التي تشكل ركيزةِ من ركائز اهتمام الشعر العربي رغم جناية وتجني بعض الشعراء عليه، بخروجهم عن النص وتناسيهم القدس بعد التفاتهم إلى نزواتهم الخاصة وتنظيرات الشعر المحدثة.

في القدس ما يدفعنا للتعاطف والتلاحم ومن ثم المناصرة على مستوى الهوية القوميةأو العقيدة ولذلك واقع القدس واقع مصيري، يمسّ شخصية الجميع إلا الذين انتابتهم حمى المروق. والحديث عن القدس مرتبط ارتباطا وثيقا بفلسطين الأم والجوهر والدرة الثمينة... وجل القصائد التي قيلت في القدس أو توقفت عندها سريعا مزجت بالدموع والألم والحسرة والأنين، فهي صرخات ألم يغيب عنها مسرح السرور والبهجة، لأنَّ شريطها الزمني يحكي سيرورتها الدائمة مع المآسي والآلام فلا عجب إن طغت الدموع والأنات واعتلى القصائدَ الصوتُ المباشر الذي يقرّر، وخاصة قصائد الشعر العمودي التي تفاوتت مستوياتها وإلى جانبها قصائد التفعيلة التي مالت إلى الإيحاء والهمس مبتعدة عن المباشرة لحد معين.. هذه أحكام عامة تحتاج إلى شواهد تثبت صحة الأحكام وتكشف معارجها وزواياها الحانية.

إن اقتصار المقالة على الشعر السوري المعاصر لغزارة النتاج وتنوعه، ولصعوبة التصنيف والإيفاء بكل جوانبه. ولأن سوريا تعتبر فلسطين في مركز القلب، وقضيتها عبر التاريخ قضية مصيرية لا جدال فيها، واقتران القدس بدمشق مرهون بالانتماء القومي الذي يزكو في ربوع الشام ويتنامى ولذلك خصها شعراء الشام وتحديدا سوريا ولبنان بالكثير من قصائدهم، ومازالت في مركز الاهتمام المصيري الرسمي والشعبي، للقدس مركزية لا تضاهيها سوى مكة، فلا عجب من غزارة القصائد التي لامست قدس الأقداس حبّا وتقديرا وارتباطا لا انفصام فيه وأسعفتني المجلات الأدبية والثقافية والدواوين المنشورة والكتب الأدبية والدراسات بالكثير مما قيل عن القدس ومعالمها وما انتابها، واكتفيت بالشعر المعاصر لتسهيل بسط البحث وهناك أبحاث مكملة للدراسة فالشاعر بدوي الجبل اقترب من جوهر القضية الفلسطينية فكان على مسافة قريبة من العقل والعاطفة في ملامسة القضية وكان كغيره يستغل كل مناسبة هامة ليتوقف عند القدس:

في قصيدته / يا وحشة الثأر / الديوان ص ١٢٨ دار العودة وقالها في حفل تتويج الملك الفيصل الثاني:

دم بتونس لم يُثأرْ له، ودم بالقدس – هان على الأيام – لاهانا
وما لمحت سياط الظلم دامية إلا عرفت عليها لحلم أسرانا

ومع حلول النكبة يعري بدوي الجبل الواقع العربي وممارسات الغرب في أسواق النخاسة: فيقول ص ٣٢:

أسْلَمَ القدس من يحج إلى القدس ويتلو الإنجيل وردًا فوردا
مدن القدس كالعذارى سبوها وأرادوا لكل عذراء وغدا
غيرة الله، أين قومي، وعهدي بهمُ ينهدون للشر نهدا

بدوي الجبل يوظف لغته الجزلة، وصياغته المتينة في تأجيج المشاعر وتحريك النخوة التي استسلمت للنوم واليأس فيقول ص ٨٠:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا رقّ الحديدُ و ما رقّوا لبلوانا
هل في الشام و في القدس والدة لا تشتكي الثكل إعوالاً و إرنانا
قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهمُ من قسم الناس أحرارا وعبدانا

ربط الشاعر بين دمشق ( الشام ) والقدس لأنه يعتبر المصاب والآلام واحدة ولذلك بقي مهموما وفي نفسه غصّة بعد جلاء الإفرنسيين عن سوريا، فلم تكتمل فرحته فيقول في قصيدته ( عيد الجلاء ) ص ٩٤:

يا فلسطين هوى مستعر من ربى الشام
تمّ صفو الدهر لولا محنة في فلسطين، وبلوى وشقاء
يا ربى القدس، وما أندى الربى

دمنـــا فيهـــا ربيــــع و نمــــاء
انتزعنـــا الملـــك مـــن غاصبـــه
وكتبنـــا بالـــدم الغمـــر الجـــلاء

ولا يخفي الشاعر بدوي الجبل ألمه لما آل إليه أمر القدس ومقدساتها فيذكر العرب والمسلمين بمقدساتها وينسبها إلى تخاذلهم ص ٩٦:
هـــل درت عـــدْنُ أنّ مســـجدها
الأقصـــى مكـــان مـــن أهلـــه مهجـــور
أيـــن مســـرى البـــراق والقـــدس
والمهـــد وبيـــت مقـــدّس معمـــور
لـــم يُرتّـــلْ قـــرآن أحمـــد فيـــه
ويـــزار المبكـــى ويتلـــى الزبـــور
أيـــن آي الإنجيـــل؟ فـــاح مـــن
الإنجيـــلِ عطـــر وضـــوء الكـــون نـــور
بالـــذلِ الإســـلام، والقـــدسُ نهـــب
هُتكـــت أرضـــه فـــأين الغيـــور

وكذلك كان حال الشاعر عمر يحيى الذي ابتهج بالجلاء ولكنه لم يرض إلا بتحرير فلسطين والقدس فيقول في قصيدته / الجلاء / الديوان / منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٠ ومطلعها ص ٣:
شـــق جيـــب الليـــل عـــن بـــيض الأمـــاني
فـــاخفقي يـــا رايتـــي بـــين المغـــاني

ثم يقول متأثراً ومذكراً:
يـــا فلســـطين بمـــا يرضـــى العلـــى
ســـوف نرضـــيك، ومـــا يرضـــي التفـــاني
لـــك فـــي كـــل فـــؤاد خفقـــة
وعيـــون يعربيّـــات روانـــي
شـــرف الأقصـــى نمانـــا مجـــده
وقلـــوب باديـــاتِ العنفـــوان
لا تقـــولي: نـــام عنّـــي فتيتـــي
إن مـــن نـــام عـــن الضـــيم لـــوانِ

يرى الشعراء في القدس حسنَ الانتماء وحسنَ العبادة، ولذلك خصوها بالحب الصافي ولم يتوانوا عن ذكرها في كل مناسبة، فقد حضرت في كل مناسباتهم وقدموها مقدسة مباركة لها تاريخها ودورها وقدسيتها فالشاعر عمر يحيى في ديوانه وفي حفل تكريمه الذي جرى بمدينته حماه يقول في قصيدته / ذكريات بحماه / ص ٥٣:
أيـــن منـــي مغنـــى أويـــت إليـــه
أرشـــف العلـــم والزمـــانُ زمانـــه
أيـــن منـــي الأقصـــي ودار صـــلاح
ديـــن درســـا؟ وأيـــن منـــى مكانـــه؟
ســـتعودين يـــا فلســـطين مهمـــا
أبـــرق الســـقط، أو نمـــا طغيانـــه

حمل الشعراء في سوريا همَّ القضية كما حملها الثوار الذين ناضلوا واستشهدوا كسعيد العاص وعز الدين القسام وذهب الكثيرون منهم إلى جيش الإنقاذ كالأديب الراحل عبد السلام العجيلي. وقد حضرت القدس مرارا في قصائد عمر أبو ريشة، وكان حضورها لافتا ومؤثرا فيقول في قصيدة / قيود / وفي ذكرى رحيل المجاهد إبراهيم هنانو، والديوان منشورات دار العودة / المجلد الأول / ومطلعها ص ٥٢٢:
وطـــن عليـــه مـــن الزمـــان وقـــار
النـــور مـــلء شـــعابه والنـــار

ثم يقول متألما وعارضا شريط المآسي:
أقســـى جـــراح المجـــد جـــرح لـــم تكـــن
تقـــوى علـــى تضـــميده الأحـــرار
والقـــدس مـــا للقـــدس يختـــرق الـــدما
و شـــراعه الآثـــام و الأوزارا
أيُّ العصـــور هـــوى عليـــه ولـــيس فـــي
جنبيـــه مـــن أنيابـــه آثـــار
عهـــد الصـــليبيين لـــم يبـــرح لـــه
فـــي مســـمع الـــدنيا صـــدى دوّار

في حنايا القصيدة وغيرها بوح موجع، ونجوى موجعة وذكريات أليمة وأبر موخزة، فيقول في قصيدة (هذه أمتي ) ص ٥١٦:
وســـلوا القـــدس هـــل غفـــا الشـــرق عنهـــا
أو طـــوى دونهـــا شـــبا مرانـــه

أيْ فلسطين، يا ابتسامة عيسى
لجراح الأذى على جثمانه
يا تثنيّ البراق في ليلة الإسراء
والوحي ممسك بعنانه
لا تنامي خضيبة الحلم خوفا
من غريب الحمى ومن أعوانه
إنَّ للبيت ربّه، فدعيه
بَ حاو رداه في ثعباته

وكذلك في حفل تأبين المجاهد الوطني سعد الله الجابري يذكر فلسطين والقدس ص ٤٥٠:
أي فلسطين، ما العروبة لولا
قبس من سنا النبوة هاد

فرحتهم لم تكتمل لأن فلسطين تعاني من الإنكليز والصهاينة فيقول في قصيدة / عروس المجد / ص ٤٣٧:
ما بلغنا بعد من أحلامنا
ذلك الحلم الكريم الذهبي
أين في القدس ضلوع غضّة
لم تلامسها ذنابي عقرب؟
يا روابي القدس، يا مجلى السنا
يا رؤى عيسى على جفن النبي
دون عليائك في الرحب المدى
صهلة الخيل ووهج القضب

هذا الإحساس النبيل أنتج قصائد ترفل بالحب والإخلاص للقضايا القومية وفي مقدمتها فلسطين، فأبو ريشة في قصيدته / يا عيد / يبدي تفاؤله بالعيد الكبير عيد التحرير ص ٩٣:
يا عيد ما افترّ ثغر المجد، يا عيد
فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد
يا عيد، كم في روابي القدس من كبد
لها على الرفرف العلويّ تعييد
سينجلي ليلنا عن فجر معترك
ونحن في فمه المشبوب تغريد

ولذلك لا غرابة إن سمعنا نداء قاسيا وتنديدا يطرق العقول والآذان، فيقول في قصيدة ( هكذا ) وهي معروفة ص ٧:
بدوي أورق الصخر له
وجرى بالسلسبيل البلقع
فإذا النخوة والكبر على
نزف الأيام جرح موجع
والبطولات على غربتها
في مغانينا، جياع خشّع
هكذا تُقتحمُ القدس على
غاصبيها.. هكذا تُسترجعُ

فالشاعر لا يتوانى عن السخرية المقرعة، ولا يقصّر بإبداء غضبه واستنكاره، فيقول في قصيدة / حماة الضيم / ص١٤:
عاتبته و نسيت طيب نجاره
وأبيت أن تصغي إلى أعذاره
المجد يخجل أن يجيل الطرف في
ما هدَّمَ الجبناء من أسواره
هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أحباره
خشب الصليب على الرمال مخضّب
بدماء من نعموا بطيب جواره

وما زلت أتساءل: أين صوت أبي ريشة في حرق المسجد الأقصى وتهديمه والمجازر وقد كان على قيد الحياة، فهل كتب ولم ينشر ذلك، أم أنه فضل الصمت والتزم الوحدة التي آل إليها في آخر حياته، فأغلب قصائده التي ذكر فيها القدس وفلسطين تنتسب إلى مرحلة الشباب وهي مجرد إشارة واستفسار.

وفي ديوان / نوح العندليب / للشاعر شفيق جبري ذكرٌ ووقفة عند فلسطين والقدس، وقد ورد ذلك في قصيدة ( بطولات العرب ) والتي ألقاها في مهرجان الشعر العربي الأول دمشق/ ١٦ /أيار / ١٩٥٩ / وجاءت في ديوانه ص ٨٧:

يــا دامــي الجــرح لا جــرح ولا ألــم
الجــرح بعــد انتفــاض العــرب ملتــئم
امســح دموعــك إن ماجــت موائجهــا
فكــل ثغــر علــى الأيــام مبتســم

ثم يتساءل تساؤل المستنكر ما يجري للقدس:

فهــل تظــل ســفوح القــدس ضــائعة
فــأين مــا ســلبوا منهــا ومــا غنمــوا
إذا ضــحكنا فمــا فــي جــدهم ضــحك
وإن عبثنــا بهــم فالعــابثون هــم
ســيندم العــرب إن طــال الشــقاق بهــم
ولــيس ينفــع عــض الكــف والنــدم

فالشاعر وضع يده على الجرح الدامي لأمتنا وهو جرح الخلافات والتمزق الذي سينهك الأمة ويضعفها ولشفيق جبري قصيدة بعنوان / تحية القدس / وقد قيلت في إذاعة القدس ووردت في الديوان المذكور / نوح العندليب / ص٩٦:

خــاطرٌ مصــبح وآخــر مُمْــسِ
ذكرانــي الســيوف مــن عبــد شــمس
مــا نســيت العهــود مــنهم، ولكــن
موجــة الــدهر بالشــدائد تنســي
يــا نســيم الضــحى علــى المســجد الأق
صــى لقــد هجــت ذكــرهم مــلء نفســي
لــيس لــي حاضــر يقينــي حمــاه
إنمــا حاضــري نضــارة أمســي

فالشاعر يمر بحالة إحباط ويأس من الحاضر ولا يجد علاجا أو بصيص نور إلا بربط الماضي مع الحاضر ليكون داعما للغد المأمول.

وهذا الشاعر سليمان العيسى الذي شغله الواقع العربي وما فيه ولكنه بقي متمسكا بمبادئه ومتماسكا أمام قسوة الواقع والمعاناة، فاستعان بالأمل والتفاؤل والإيمان بقدرة الأمة العربية على تجاوز محنها وما أكثر القصائد التي يتوقف فيها عند الهم القومي وتحديدا فلسطين، في قصيدة / نحن والعيد / الواردة في ديوان / مع الفجر / في المجموعة الكاملة من المجلد الأول ص ١٣٣، لا يستطيع أن يحلق بأجنحة الفرح والقدس أسيرة:

أي عيــد أتلقــاه وأغــدو
مرحــا أزهــو علــى الكــون وأشــدو
وبــلادي ألــف جــرح يســتبدّ
وثــرى القــدس دم مــا جــف بعــد
أي عيــد أتلقــاه رغيــد
وعــدوّي مُديــةٌ فــوق وريــدي

وترتفع آهات الشاعر وألمه عاليا لتعبِّر عن غضبه وثورته فيسكب موجا من الغضب والتقريع فيقول في قصيدة عدنان المالكي بعد عام على مصرعه وفي ديوان رمال عطشى. المجموعة ص ٣٩١:

أمس، والشارع فــي القــدس خضيب بالــدماء
لحتْ ومضا يتحدى المــوت فــي عينــي رجــاء
(رجــاء حســين الشــهيدة)
وأرنّــتْ ضــحكة الفــارس فــي ســمع الفنــاء
تقــرع الخلــد: أنِ افــتحْ.. إن ركــب الشــهداء

وفي مكان آخر من الديوان / رمال عطشى / يبدو متحديا ومتفائلا فيقول في قصيدة / الأردن الثائر / وبلغة تمور بالسخط والغضب ص ٣٧٢:

يــا ضــحايانا.. وعَطّرنــا الســماوات أضــاحي
مــا تعبنــا.. ولقــد كلّــت ميــادين الكفــاح
يا روابي القدس، لــن نهــدأ مــن ســاح لســاح
أو يمــور الــوحي فــي جنبيــك مزهــوّ الجنــاح
يا روابي القدس، لــن نهــدأ مــن ســاح لســاح

شاعرنا سليمان العيسى من الشعراء الذين أكثروا من النداء والتحدي والتقريع وزرع الأمل في سبيل القضية الفلسطينية كعقيدة قومية لا يأتيها الباطل فيقول / في عيد الوحدة / وقد ألقيت في المهرجان الكبير /١٩٥٨/ ووردت في المجلد الأول من المجموعة الكاملة ص ٥٤٤:

يــا ليــالي الضــياع والقيــد زولــي
نحــن بــاقون وحــدة لــن تــزولا

ثم يقول:
أين أهلي في القدس فوق الضفاف الخضر ضجّت في صدرهم أشواقي
أين أهلي؟ فالعيد في كل صدر زغردات تضيء في الآفاق

فالوحدة العربية وجود قومي وسبيل إلى التحرير وعودة القدس إلى أهلها العرب، ومازالت القدس تشغل الإنسان العربي الذي يتوق إلى الحق والخير، فاعتبرها مركزا دينيا ومرتكزا للثوابت، وذكرُ القدس يعني فلسطين ويوحي بالسيرورة التاريخية العريقة لهذه المدينة وهذا البلد الآمن، والشاعر نزار قباني من الشعراء المعاصرين الذين رفعوا صوتهم مرارا وفي مواقف مصيريّة وفي كل مناسبة أو مهرجان أو اتفاق أو انتفاضة أو مأساة، فشغلته فلسطين، وذكرها مرارا وعبّر عن غضبه وإدانته للواقع وتقريعه لما يجري ورسم طريق الخلاص، وورد ذكر فلسطين والقدس والمدن الفلسطينية في الأعمال السياسية في / طريق واحد / وقالها بعد النكسة ١٩٦٧ وهي مغناة بصوت أم كلثوم ص ٩٢٥:

يا أيها الثوار /في القدس، في الخليل / في بيسان، في الأغوار / في بيت لحم، حيث كنتم، أيها الأحرار / تقدَّموا.. تقدَّموا.. / فقصة السلام مسرحية.. / والعدل مسرحية.. / يمر من فوهة بندقية... /.

نزار قباني كان واضحا وجليّ الفكر في وقفته الشعرية مع القضية الفلسطينية، فلا يخفي قلقه وحزنه وثورته في قصيدة / حوار مع أعرابي أضاع فرسه / والفرس لدى العربي يعني الكثير من وجوده ورجولته وفروسيته وكرامته. ص ٨٤٩:

/ لو أن بحيرة طبرية.. / تعطينا بعض رسائلها / لاحترق القارئ والصفحات.. / لو أن القدس لها شفة /لاختنقت في فمها الصلوات.. / لو أنّ.. وما تجدي ( لو أن ) ونحن نسافر في المأساة.. /ونمد إلى الأرض المحتلة، حبلا شعريّ الكلمات../ ونمد ليافا منديلا طُرِّز بالدمع وبالدعوات.. /

إنه يضع يده على موطن الجرح والداء، فيوجه صوته إلى بؤرة الحدث ومركز الخلل وهذا نراه في قصيدة /الخطاب/ التي تبوح بما تعاني القدس وحجارتها وللعنوان دلالات كثيرة ص ٨٣٧:

/ لم أعد أهضم حرفا من أكاذيب أمير المؤمنين /صارت الألفاظ مطّاطا / وصارت لغة الحكام صمغا وعجين/ خدّروني بملايين الشعارات، فنمت / / واروني القدس في الحلم.. / ولم أجد القدس، ولا أحجارها حين استفقت / فاعذروني، أيها السادة، إن كنت ضحكت / كان في ودّي أن أبكي.. ولكنّي ضحكت../.

وقدم الشاعر نزار القدس وقد دُنِّست وعرِّيت واستبيح طهرها في قصيدة / من مفكرة عاشق دمشقي / ولكن الشاعر يميل إلى التحريض والتلميح وإثارة النخوة وهذا شأن الكثير من القصائد التي نحت هذا المنحى في التعبير والتصوير إلى حد المبالغة في التصوير وهذا يتنافى مع قدسية فلسطين والقدس والمقدسات تحديدا فيقول ص٨١٦ في مطلعها:
فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا
فيا دمشق، لماذا نبدأ العتبا

ثم يقول:
سقوا فلسطين أحلاما ملونة
وأطعموها سخيف القول والخطبا
وخلّفوا القدس فوق الوحل عارية
تبيح عزة نهديها لمن رغبا
أيا فلسطين، من يهديك زنبقة
ومن يعيد لك البيت الذي خربا

لم يتوان الشاعر عن التعبير وبأشكال مختلفة ولكنه بقي في فلك المأساة وجوهر القضية التي نعتبرها قضية قومية مصيرية تخص كل عربي ومسلم، في قصيدة ( منشورات فدائية على جدران إسرائيل ) يقرع ويشير إلى جريمة حرق المسجد الأقصى ص ٧٧٩:

المسجد الأقصى شهيد جديد
نضيفه إلى الحساب العتيق
وليست النار، وليس الحريق
سوى قناديل تضيء الطريق..

ويبرز الشاعر نزار مكانة القدس بين الشرائع السماوية، فيسكب لوعته وحزنه لما آل إليها الأمر ويخصها بالتسمية ( القدس ) ص ٧٧٦:
في هذه القصيدة تخمد لغة المباشرة، وتشع لغة صافية موحية.

بكيت حتى انتهت الدموع..
صلّيت حتى ذابت الشموع..
ركعت.. حتى ملّني الركوع..
سألت عن محمد فيك، وعن يسوع
يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء..
يا قدس يا منارة الشرائع
يا طفلة جميلة محروقة الأصابع
حزينة عيناك، يا مدينة البتول
يا واحة ظليلة مر بها الرسول..
يا قدس يا جميلة تلتف بالسواد
من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة؟
صبيحة الآحاد..
من يحمل الألعاب للأولاد..
في ليلة الميلاد...؟

أرى أنّ هذه القصيدة ( القدس ) من أعمق وأبلغ القصائد التي توقفت عند القدس في العصر الحديث لغنى الإيحاء وحسن الدلالة في كل لفظة توحي بالكثير من الأسى والحسرة.

وهذا ما يجعل الشاعر نزارا يتوجه إلى شعراء الأرض المحتلة وبعنوان ( شعراء الأرض المحتلة ) يحضهم على الثبات، وبالمقابل يُحمّل المثقفين رسالتهم ص ٧٧٤:

وننادي: يا رب الأرباب
نحن الضعفاء، وأنت المنتصر الغلاب
نحن الفقراء، وأنت الرزّاق الوهاب
نحن الجبناء، وأنت الغفار الوهّاب
شعراء الأرض المحتلة
ما عاد لأعصابي أعصاب
حرمات القدس قد انتهكت
وصلاح الدين من الأسلاب
ونسمّي أنفسنا كتّاب..

هناك الكثير من القصائد التي قالها نزار في فلسطين والقدس والواقع العربي وستبقى شاهدا على مرحلة عصيبة رصدها نزار في وقتها، وبروح ثائرة غاضبة لامست ضمائر الشارع العربي بأغلبيته.

هذه القدس المباركة كانت تعيش في وجدان الشعراء السوريين الذين هاجروا واستقروا بالمهاجر، ولكنهم بقوا معلقين بالوطن وملتصقين بالقضايا المصيرية، وهذا أمرٌ نعتزّ به فالشاعر الياس قنصل يقول بعد احتلال القدس /١٩٦٧/ من قبل الصهاينة، ويبدي ألمه وحسرته من مرارة الواقع

إنا خسرنا القدس وهي وديعة
في عهدنا من سؤدد الخلاّق
ما كان من وهن سلاح ضياعها
بل من شيوع الذلّ في الأخلاق

قدم شعراء المهجر حبهم لفلسطين ولأمتهم وآلمهم حال القدس والأمة وتعاضدوا مع الأعياد الإسلامية وجلهم مسيحيون وهذا يبرز الوعي والنقاء والتآلف فهذا الشاعر نبيه سلامة وهو مغترب من حمص يقول مشيدا بالرسول في يوم مولده:

يا من يرون القدس في أحلامهم
وطنا يهيمن فوق التلمود
لا تستفيقوا فالحقيقة مرة
بين الحقيقة والمنام حديد
لو أقبلت دول السماء لعونكم
هبَّت إلى ردِّ السماء أسود
قالوا: هذا وطن اليهود وليتهم
قالوا هنا للتائهين لحود

وقد حرموا من الصلاة والزيارة والحج إلى القدس فيقول جورج صيدح في قصيدة / نكبة فلسطين / ما يُؤثر في النفس التي حرمت من حقها الشرعي والإنساني:

يا من يرون القدس في أحلامهم
وطنا يهيمن فوق التلمود
لا تستفيقوا فالحقيقة مرة
بين الحقيقة والمنام حديد
لو أقبلت دول السماء لعونكم
هبّت إلى ردّ السماء أسود
قالوا: هذا وطن اليهود وليتهم
قالوا هنا للتائهين لحود
عبثا يا طيف تبلو جلدي
ليس لي بعد فلسطين جلد
وطني ماذا على النازح إن
ذكر القدس فصلّى وسجد
لطم الأعداء خديك ولم
يسمعوا منك سوى شكوى الوتد

وهذه المقطوعة من القصائد التي شخّصت القدس وقدّمتها كائنا يحسُّ ويلطم ويتألم، ويتوجه الشاعر جورج صيدح إلى النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم في قصيدة ( المولد النبوي ) يستغيث ويرجو الخلاص:

يا من سريت على البرا
ق وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجّدد
ليلة المعراج آن
عرج على القدس الشريف
ففيه أقداس تهان
ضجَّ الحجيج به ورَي
عَ ضريحه والمسجدان
بارك جهاد المؤمني
ن النافرين إلى الطعان
الضارعين إليك باس
م الآل والصحب والغران

بهذه البساطة والصدق، عبر الشعراء السوريون في المهاجر عن القدس وآلامها ومحنتها، فكان صوتهم صوت الحق بعيدا عن المبالغة والتكلف وهناك الكثير من القصائد والمقطوعات التي يمكن التوقف عندها، فاكتفيت بما يدل ويوحي، وقد مالت القصائد إلى الاهتمام بالحدث والمضمون الذي شغلها أكثر من اهتمامها بالجانب الفني لدى بعض الشعراء، ومن الشعراء السوريين الذين أكثروا من التعاطف مع قضية فلسطين الشاعر جاك صبري شماس، وربما يكون أغزر شاعر في معالجة قضية القدس وقد خصها بعناوين دواوين/ عروس المدائن / وبقصائد مختلفة منها (الأقصى يناشد ضمائركم)و( القدس للعرب ) و(واقدساه ) و( الجهاد المقدس )و( القدس عروس المدائن ) و(المسجد الأقصى) وغيرها الكثير، وفي كل كلمة يسكب ألمه ويدعو إلى اليقظة ونصرة فلسطين ويستدعي الأبطال كصلاح الدين ويذكر بالمقدسات، وفي هذه القصائد يتجلى صدق الإحساس وعمق المعاناة ونبل المقصد وسوف أكتفي ببعض الشواهد مما قالها في قصيدة ( الأقصى يناشد ضمائركم ) من ديوان ( الحب النبيل ) ص ١٣:

أيهوّد الأقصى الحبيب يهود
وبنو العروبة في الخطوب قعود
والجامع الأقصى رهين شراذم
تلهو وتعبث بالتقى وتسود
ماذا أسطّر؟ يا صلاح الدين قم
جثمت على صدر النخيل قيود
قم يا صلاح الدين وابعث نخوة
ليصول في ساح الجهاد أسود
وتؤوب للأقصى نضارة وجهه
ويفيء في القدس الحبيب خلود

إحساس الشاعر يتنامى مع أهمية الحدث، وهل هناك أقسى من معاناة القدس ومقدساته فيقول في قصيدة ( واقدساه ) المنشورة في ديوان ( قصائد حب ) ص ٨٥:

شموخك يا حبيبة ذو جلال
وطهرك ليس يُحصَرُ في مقال

فلسطينية شمخت وقارا
بأقدس موطن وأعز آل

ثم يشير إلى مقدساتها وما تكابده، وبلغة مؤثرة:
وذاك الجامع الأقصى منارة
ومعراج النبي إلى المعالي
أيسلبُ غادرُ محرابَ قومي
وقومي أدمنوا عقم الفعال
ولو نادى قصيدي صُمَّ صخر
سمعت الصوت في ثغر الجبال
أيسلو مؤمن طهر الروابي
وأقدسَ بقعة ذات الحلال

ويلتفت الشاعر إلى واقع العرب والمسلمين وما جرى من مصائب دفعت ضريبتها القدس، فينادي وبصوت يكشف عما يعانيه من لوعة وأسى وذلك في قصيدته ( القدس عروس المدائن ) والمنشورة في ديوانه ( عروس المدائن ) ص ٣٢:
يا أمة الإسلام، ما جدوى امرئ
خلع الوقار معفّرا بتراب
فالقدس تزحف في رباها أرقم
والشعب يلظى من سياط عذاب
والجامع الأقصى سجين عصابة
عصفت بكل مبادئ وعقاب
والمسلمون مدى المدائن والقرى
شلوٌ تبعثر في فضاء مصاب
يا قدس ماذا تستعيد بلاغتي
والأهل طعمُ صوارمٍ وحراب
ماذا تفيد عروبةٌ بثرائها
وضميرها رغم الغنى كسراب

وتبقى هذه القصائد شاهدا على مراحل عصيبة، وهي تؤرخ لوجع دفين راح يوخز بسطاء الناس الذين يرون في القدس شقيقة لمكة ويذكرونها في كل مناسبة دينية فالشاعر عبد الباقي عبد الباقي في مجلة نهج الإسلام العدد /٩٩/ ٢٠٠٥ وبمناسبة الإسراء والمعراج يبوح ويذوب شوقا وألما، وتنتابه الحسرة:
إسراء أحمد في دجى الظلمات
زكّاه رب الخلق في الآيات
سبحان من أسرى بخير عباده
ليلا إلى الأقصى وفي العتمات
فالمسجد الأقصى - تبارك ربنا -
قد خصه بالخير والبركات
ليكونَ مسجدَه وأوّل قبلة
ويكون قدس الأرض والروضات
ليكون للأديان مهدا للتقى
ومُجمّع الإيمان والرحمات

ثم يقول متحسرا:
والمقدس المعمور معرج أحمد
مهد المسيح يئن بالويلات
عذرا رسول الله، إنّ جموعنا
لم يعملوا للنصر والعزمات

ولا تستطيع الشاعرة نجوى صالح هنداوي إخفاء حزنها وتضرعها لله وهي تؤدي فريضة الحج فاستحضرت القدس وما تعانيه فتقول: مجلة الحج والعمرة تشرين الثاني ٢٠٠٤ وعنوان القصيدة ( الأنوار المكية ) ص ٨٦:
سار الحجيج وفاضت الدمعات
بأريج مكة طابت النسمات

ثم تقول متوسّلة:
يا ربَّنا أصلح جنوح نفوسنا
فاض الهوى، وتوالت النزلات
يا أمتي، ضمّي الصفوف توحّدي
هذا العدوّ وراءه النكبات
فالقدس جرح قد توالى نزفها
في كل يوم للعلا هامات
فانصر إلهي كل حر صادق
أنت المجيب، وللقضا ساعات

في هذه الساعات المباركة عاشت الشاعرة محنة الواقع الإسلامي ورأت ما تكابده القدس، فالتجأت إلى الله بصدق وصفاء كَشَفا عمق الإحساس.

ولا يرى الشاعر مصطفى أحمد النجار في ديوانه ( غنائيات عصرية ) سوى الهم الإنساني وكان للقدس أكثر من قصيدة وذكر فيقول في قصيدة ( فلسطين أم السيوف ) ص ٨٣:

سلاما فلسطين أم السيوف
كتابا يعلّمنا الأبجدية
سلاما فلسطين أم الضحايا
وتبقين في القلب جرح القضية
سلاما عليك من الشعر كم
تستمد القصائد منك الحمية
ستبقين، والقدس رمز نهوض
وتبقين في القلب وهج القضية

وتأتي الذكرى الخمسون لنكبة فلسطين وما تحمله من آلام وصور مأساوية توحي إلى الشاعر عبد القادر الحصني في قصيدته (الضجيج) وقد وردت في كتاب (منتخبات شعرية) صدر عن اتحاد الكتاب العرب، وفي القصيدة استحضار للشهيد ص ٢٢٢:

سيحضر متشحا بالجبال ومؤتزرا بالسراب
ويحضر بين يديه الجدود
وسوف يكون شهيدا عليكم
فما جاء إلا ليشهد هذا الشهيد
سلام عليه
سلام على الزعفران المندّى على شفتيه
على القدس تهرق نور الألوهة في مقلتيه
على قبة الصخرة المستريحة في راحتيه
له يزدهي البيلسان / ويأتلق المهرجان
ويبتسم الأقحوان
ويعبق في الأمسيات الأريج
لعل شفيفا من الحزن يملأ قلب المكان
فيخجل منه الضجيج..
ثقيلا يمر الضجيج

ويهمس الشاعر عبد الرحمن عمّار بلغة شفافة تعبر من خلالها أرق المعاني لتشكل رافدا من روافد الحب المدعم بالعبق الروحي تجاه القدس في قصيدته /يا.. ناي مدي الصوت/ من ديوان (طيور اليمام) ص ٢٦:

يا ناي كوني الموج يحملني
ويمّدني بالحلم ناهده
للقدس أقصاه، فلا سكن
إلا بما نبضت مساجده
مرموز أمته منارته
وحنين ماضيه يناشده
سبحان من أسرى بسارية
للحق، بارقة قلائده
من أجله انتفضت حواضره
ومضى إلى الأقصى مجاهده

هذا الدفء اللغوي يقابله حب وإيمان تجلّيا أيضا في قصائد الشاعر جلال قضيماتي وقد ذكره غير مرة ولكنه خصه بقصيدة حملت عنوان (القدس) من ديوانه (معارج الطين) واستنطق القدس وشخصها فراحت تبث لواعج همومها وأساها ص ١٣٨:

ماذا أقول إذا عاد الربيع، فلم
يبصر سوى الريح والأشواك في طرقي؟
ترى، أقول: مضى من كان يغمرني
بالدفء والخير في ذاك المدى الأرق
ماذا أقول: أجفّ النهر أم حبست
عني السماء فعاث القحط في أفقي
أنا السجينة، لا أهل ولا وطن
مضى الجميع سوى الآلام والحرق
تحت الخيام أرى في كل منعطف
ظلّ التشرد والأوهام والقلق

ثم يجيبها الشاعر مُطمَئنًا ومُطَمئناً:

مدينةَ الصحو، ما جفّت مرابعنا
لك الحياة برغم الموت والأرق
سترجعين إذا عاد الربيع ندى
يهمي على السنبل النامي، على الشفق
غدا سيفتح (نوار) أضالعه
وينقذ الكون من سرباله الخلق

أحسن الشاعر لغة الخطاب واعتمد على التلميح والترميز بعيدا عن المباشرة ولم يخف الشاعر مطيع إدريس تفاؤله في عودة القدس إلى مكانتها وأهلها، وقد توجه إليها ثلاث مرات في ديوانه(لن ينتهي الإبحار) فيقول متفائلا بالشعب الفلسطيني الصامد ص ٣٣:

هو الشعب الفلسطيني
هو الآتي
على صهوات يرموك وحطين
هو الحجر المغيِّر..
كل كفات الموازين
غدا ستؤوب أسراب الحساسين
غداً يا قدس..
تسقط كل أوكار الجوارح والغرابين
غداً سيعود للأقصى
بلال كي يؤذن للملايين

فالشاعر مطيع إدريس تجاوز لغة التقريع واتجه إلى الأمل وزرع الثقة بالله والشعب وهذا منحى تجاوز البكائيات والاستسلام، فتشرق لغته كما يشرق عنوان الديوان وعنوان القصيدة التالية(إشراقة الغضب) فيخاطب القدس ويضمدُ جراحها بلغة تتماوج بين الرقة والعنف ص١٣:

صبرا يا قدس على ليل
وحشيٍّ سوف يبدده
إشراق من شمس نهار
من فجر ولادة حطين
وسنا اليرموك وذي قار
من دفق دماء ترشفها أعراق تزفر كالنار
تتحدى مدية جزار
فالمجد لأطفال الأقصى
ولكل أباة أحرار

وللشاعر مصطفى بدوي قصيدة موحية تحملها لغة راقية وخيال مرهف بالإحساس (أغنية للقدس) من ديوانه (متعب وجه المرايا) فالشاعر يطلق لشاعريته ورؤاه الأمل فيتوجه إلى القدس ملامسا وجعها ص ٢٧:

بكل انعطاف الرؤى إليك
أرى المستحيل
هو الحب اجترح المعجزة
وأسبرُ غور الزمن
وأقتات بالأمل المرتجى
وأصعد نحوك نسرا عزيز الجناح
أنا الوجد والتوق والذكريات
توغلتِ في الجرح مني
وأسرجتِ نحوي الرياح
وهذا جناحي
وصوتي الذي ما احتواه المدى
رجوتك
يا سِدرة المنتهى
بذلتُ لك القمح والأوردة
ورحتِ أصلّي.. أصلّي
أرشّ التعاويذ فوق الحصار
لعل السبيل إليك تلين
وينبض بالحب قلب الصغار.

أرى قصائد التفعيلة عالجت قضية القدس بلغة موحية وبرؤية هادئة ومشعّة مزجت بين الواقعي والفني وتجاوزت لحد بعيد لغة الصفع والتقريع، وإن مالت إليها فإنها أحسنت التوظيف، فالشاعرة الطبيبة لميس حجة في ديوان (نشيد المحبين) وفي قصيدتها (القدس والمسكين) تبدي ألمها وتحدد مسؤوليتها أمام مدينة لها قدسيتها ومكانتها ص٦٥:

لو أعترف
أكبر مني هذا الشرف
أكبر مني أنت يا قدس
أكبر من عثرات مرامي
أكبر من صمتي وكلامي
أرفع من قدري يا قدس
كيف يا قدس
كيف سأقف
قرب جلال الموت حين ترجّل
يستأذنك ببعض
شبابكْ

كيف يا قدس، كيف سأنجو؟
والمهد مسيح يبكي
آه يا قدسي

وكان للقدس نصيب في شعر الشيخ المرحوم محمد جميل العقاد والديوان حققه وجمعه الأستاذ محمد عدنان كاتبي.

والشيخ جميل العقاد عبّر ببساطة وعفوية وبلغة بعيدة عن التعقيد وهي أقرب إلى النثرية يتوجه بها إلى المسلمين والعرب لإنقاذ القدس وتطهيرها ص ٢٩٤:

أنقذوا الأقصى وصونوا قدسه
ثم صدّوهم، عليهم كبّروا
فهمُ وهمٌ، وما همْ بالذي
تحسبوهم أنهم قد كثروا

وفي قصيدة (يا رمال القدس) يشيد بالصمود ورجال القدس ص ٤١٧:

أقوس النصر أم فوز مبين؟
حازه الأبطال في القدس الأمين
مهروا القدس نفوسا حرة
إنهم في الحرب حقا ماهرون
أنت يا قدس تراث خالد
وستبقى رمزنا في الخالدين
صانك (الفاروق) لما قد أتى
وبنوه ستراهم حافظين
يا رجال القدس أبطال العرين
إن تصونوا القدس تضحوا مالكين

من الطبيعي أن نجد التفاوت في مستوى النصوص، وأن تتمايز القصائد وتختلف الأساليب لأننا أمام موضوع مشترك يهمّ عامة الناس على مختلف تكوينهم وطباعهم ورؤيتهم فيشفع لهم نبل المقصد.

فالشاعر عبد الله يوركي حلاق يأبى السكوت والخنوع، ويشتاق للوثوب والمواجهة من أجل تحرير القدس وقد ألقى قصيدته (طفل فلسطين ثائر) في المؤتمر الأمريكي العربي في فنزويلا ونشرت في ديوانه (عصير الحرمان) ص٨٧:

بيت لحم ولد الفادي بها
وجبال القدس معراج النبي
أوَ نرضى أن نراها مسرحا
للبغايا وعبيد الذهب
نحن في شوق إلى وثبتنا
يا جبال القدس ثوري واغضبي
ألف شعر لا يوازي طلقة
أفرغت في مهجة المغتصب
أين ترب القدس، هل تلثمه
شفتي في غدنا المرتقب
جدّتي قالت: إذا لم ترجعوا
وطني حَلّ عليكم غضبي

وللشاعر محمد منذر لطفي عدة قصائد يتغنى بها بأمجاد القدس ومكانتها ويدعو لنصرتها من خلال فرحته وتمجيده لحرب تشرين في مجلة نهج الإسلام العدد /٩٣/ ٢٠٠٣ يقدم ثلاثة مقاطع من كتاب تشرين جاء منها ص ٨٨:

تشرين أيقظت فينا ذكريات علا
عاشت مع الدهر نبراسا ومعتقدا
أنت الذي ردَّ للساحات هيبتها
أنت الذي منح الجلّى يدا ويدا
لا يُرْجِعُ القدسَ إلا الساحُ يا وطني
فهاته فكرا ثوريا جددا
فلا يخفك (بقدس العرب) مغتصب
ولا يروعك ما أخفى وما حسدا
فهذه ثورة الأحجار شاهدة
أن الطفولة أمضى همة ويدا

وإني لأعتز بانتمائي العربي الإسلامي وأجل المقدسات، وقد حظيت فلسطين والقدس وما انتابهما من نكبات وأحداث بالكثير من قصائدي التي نشرتها في دواويني والمجلات وحظي بعضها بالدراسات فقد كتب الكاتب أحمد حسن الخميسي مقالة نشرت في مجلة صوت فلسطين العدد /٣٧٣/ ١٩٩٩ أخذت عنوانا(قضية فلسطين في

ضمير الشاعر محمود محمد أسد) ولي شرف النشر في أغلب الدوريات العربية عامة والفلسطينية خاصة ومما قلته:

يا قدس كم عبث الأعداء كم هتكوا
والناس في نفق والحق كالزبد
بحر من الحزن والأرواح هائجة
نزف من الدمع لم يفلح ولم يعد

وأقول:

القدس نامت على ذلٍ وقد وقعت
في الأسر، هل من رجال فيهم ذمم؟
وا لوعتي نحن أمسينا بلا أمل
أمات حسٌ لنا أم أننا غنم؟
هبّوا لإنقاذ شعب في العراء أوى
لحافهُ الثلج والأحلام تنهزم

وهناك قصيدة بعنوان (للقدس اعتذار) جاء فيها:

فالنائحات صراخُهنَّ مبدّد
والعرض يهتك، والغيور سقيم
القدس ما عادت عروس عروبة
والمسجد الأقصى سباه الروم
تأبى العروبة أن يكون سلاحنا
صبرا، فحمل الخانعين عقيم
أحببت نبض عروبتي ورجالها
إن المحب بمن يحب يهيم

وكذلك يتوجه الشاعر عبد المجيد عرفة إلى القدس في قصيدته (من وحي الإسراء والمعراج) في مجلة صوت فلسطين ك٢/ ٢٠٠٠ / وفيها ملامسة حارة للقضية:

وسمعت في الأقصى نداءِ (محمد)
عبر المآذن في أرقِ نداء
يا أمتي، وأنا الفداء لمقدسي
إن لم يعد بين الرجال فدائي
وخجلت من نسبي لدين محمد
وتفاخري بالأمة العرباء
يا صاحب المعراج هل من نظرة
للمسجد الأقصى وذاك رجائي
لنرى جسوم المؤمنين وقد بدت
مزقا على المحراب والأرجاء
يا أيها الفاروق هذي قدسنا
ترنو إليك بحسرة وبكاء
عبث الطغاة بها، وداسوا موطنا
رحل الرسول إليه في الإسراء
والمسجد الأقصى الطهور وقد أتى
شارون يدخله بنعل حذاء

أوردت الكثير من القصائد والشواهد التي تبرز مكانة القدس ومعاناتها فكانت القصائد صورة عن واقعها وواقع العرب فارتفعت الأصوات بالشكوى والألم والتذكير والتضرع والتقريع.. وبعضها همس بلغة شعرية راقية وكلهم يشفع لهم سمو المقصد، هناك قصائد كثيرة لم أستطع ولن أستطيع حصرها ولكنني اكتفيت بما يعبِّر ويؤدِّي الغرض إلى حد ما، وهي قصائد لشعراء معروفين لهم مكانتهم الشعرية البارزة ولشعراء مغمورين ولمدارس مختلفة من الشعر القديم والحديث ولشعراء مسلمين ومسيحيين ولشعراء سوريين مقيمين في سوريا ومغتربين وهذا كله لم يكن إذا لم يجدوا للقدس هذا الموقع الهام من القلوب والأرواح فكانت القصائد على مختلف مستوياتها وتوجهاتها تنبض بالإحساس والصدق وتمور بالقلق وترفرف للخير والأمل..

* * *


المراجع:

دواوين الشعراء التي ورد ذكرها في الدراسة.
الدوريات العربية التي ورد ذكرها في الدراسة.
الاتجاه القومي في الشعر الحديث د. عمر الدقاق.
أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية جورج صيدح.